

فتحى غانم



8 زوجة الإسلام

مع السيدة

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوي

الإسكندرية



قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سمعده

رئيس التحرير :

نبيل أباطة

□ **عاديوليو ١٩٩٨** □

أسعار كتاب

اليوم في الخارج

الجمهورية العظمى	٢ دينار
المغرب	٢٠ درهما
البنين	٤٥٠٠ ليرة
الأردن	٢٠٠٠ فلس
العراق	٧٠٠٠ فلس
الكاميرون	١,٥ دينار
السعودية	١٢ ريالاً
السودان	٢٢٠٠ قرش
تنزانيا	٢ دينار
الجزائر	١٧٥٠ سنتا
مصر	١٢٥ ل. س
المغرب	٦٠٠ سنت
البحرين	١,٢٥٠ دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠ ريال
غزة	٢,٥٠ دولار
ج. اليمينية	١٥٠ ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠ بشي
المنغال	٦٠ فرنكا
الإمارات	١٢ درهما
قطر	١٢ ريالاً
انجلترا	٢ حكا
فرنسا	١٠ فرنكات
ألمانيا	١٠٠ ماركات
إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
هولندا	٥ فلورين
باكستان	٣٥ ليرة
سويسرا	٤ فرنكات
اليونان	١٠٠ دراخمة
النمسا	٤٠ هلتا
البنمبارك	١٥ كرون
السويد	١٥ كرون
اليابان	٣٥٠ روبية
كندا - أمريكا	٢٠٠ سنت
البرازيل	٤٠٠ كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠ سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠ سنت
استراليا	٤٠٠ سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوي ٦٠ جنيها مصريا

● البريد الجوي ●

- دول اتحاد البريد العربي ٢٩ دولارا
- اتحاد البريد الافريقي ٣٤ دولارا
- أوروبا وأمريكا ٣٩ دولارا
- أمريكا الجنوبية واليابان وأستراليا ٤٩ دولارا
- أمريكا أمريكا أوما يعادلها
- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (١) ش الصحافة

القاهرة ت: ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس: ٥٧٨٢٥٤٠

● تليكس دولي: ٣٠٣٢١٠

● تليكس مطلي: ٢٨٢

● قطاع الثقافة ٦ ش الصحافة

● تليفون وفاكس: ٥٧٩٠٩٣٠



أزمة الإسلام مع السياسة

فتحى خانم

مقدمة الكتاب

عقولنا .. أين ؟

مقدمة

أخطر قضايانا المستعصية، هي قضية العلاقة بين العقل والتفكير الحر من ناحية والعقيدة الدينية من ناحية أخرى. هناك حاجز قائم يعزل العقل عن الدين، مع أن كلمة العقل ومرادفاتها ترددت أكثر من أية كلمة أخرى في آيات الذكر الحكيم. والذي يتشكك في ذلك عليه الرجوع إلى معاجم كلمات القرآن، وواضح أن هذا التنبيه المتكرر إلى استخدام العقل والرجوع إليه سواء فيما يتصل بالإيمان، أو يتصل بشئون الحياة الدنيا، إنما هو لموازنة الأحكام الكثيرة التي تشمل الأحوال الشخصية والمعاملات المالية والتجارية. وحتى يتنبه العقل الإنسانى، إلى أنه مطالب فى كل وقت باستخدام عقله، ليتبين الظروف الحقيقية الواقعية من حوله، ويسترشد بالمبادئ العامة التي تقوده إلى التصرف السليم.

وإذا راجعنا تاريخ الدين الإسلامى. لوجدناه دين «الحدائث»

مقدمة

لأنه قام على تجديد النظرة الدينية إلى العلاقة بين الإنسان وخالقه وهو يعترف بأديان السماء التي سبقته، ويكمل بناء العقيدة ويجدده. ولذلك كان من الطبيعي أن يكون العقل هو أساس الإيمان، وكان من الضروري أن يشعر من يواجه تعاليم الإسلام لأول مرة بأنه لا يثور ولا يتمرد ولا يرفض الأديان التي سبقت، بل هناك إضافات جاءت من السماء وهي أساسا إضافات تقوم على الاعتراف بحقه في استخدام العقل الذي هو أكبر نعمة منحها الله إياه.

وعندما نتابع عصر الثقافة الذهبي للإسلام، نجد عصر نهم إلى العلم. علوم الفلسفة والمنطق الإغريقية أعاد المفكر الإسلامي استكشافها، وقدم للإنسانية أرسطو وأفلاطون وكل الفلاسفة الذين صنعوا الثقافة اليونانية. حدث نفس الشيء لعلماء الفرس والهند والصين، فما من عالم درس أى مجال من مجالات الحياة في الرياضيات أو الكيمياء أو البصريات أو الفلك أو الإدارة.. إلخ إلا وكان يباشر نشاطه في مجتمع إسلامي يحترم العلم والعقل.

وعندما وقف الاجتهاد وتعطل العقل وانصرف الاهتمام إلى الترف والصراعات بين الرياسات، كان قد استقر في أذهان السلطات الحاكمة، أن الله يحفظ المسلمين من كل سوء، وأنهم انتصروا على الصليبيين وانتصروا على التتار، لن يهزمهم أحد فلما جاء نابليون بتكنولوجيا عسكرية جديدة، أسقط في يد العالم الإسلامي. وما زال حتى يومنا هذا يبحث عن مخرج للأزمة التي وقع فيها. ولكنه يتفر من الذين يذكرونه بأنه خسر معاركه لأنه عطل عقله، ولم يعد مصدر إشعاع فكري وثقافي كما كان الأمر أيام أمجاد الماضي.

مقدمة

أذكر أنى عندما حاولت أن أتعرف على كلمة.. حداثة.. منذ سنوات بعيدة.. فوجئت بأن الكلمة «مودرنزم» يفهمونها فى الغرب على نحو يختلف تماما عن المعنى الذى كان سائدا بيننا فى مجتمع إسلامى. كان الناس يتحدثون عن المودرنزم على أنها الخلاعة، أو أنها الجلوس فى البارات وشرب الخمر، أو أن ترتدى المرأة «المودرن» أحدث أزياء الموضة التى تعلن عنها بيوت الأزياء فى باريس. ولكن تبينت لفزعى، أن كل هذا هراء. وأن هناك «مودرنزم» أوروبية للتصدير غير «المودرنزم» الحقيقية التى يتعاملون بها ويعتمدون عليها فى تطوير وسائل المعيشة. كانت «مودرنزم» تعنى فى أوروبا فى بداية القرن العشرين التيار الفكرى الدينى الجديد. ولم يقتصر هذا التيار على انجلترا البروتستانتية. بل امتد أيضا إلى الكنيسة الكاثوليكية التى يرأسها البابا فى الفاتيكان. ويقول الكاتب الكاثولى «جورج تيرل» أحسن وصف «للمودرنزم» فى اعتقائى، هى أنها رغبة فى العثور على فكرة دينية جديدة تتفق مع الحقائق التاريخية، والتوفيق بين هذه الحقائق الأساسية فى العقيدة وبين الحقائق الأساسية التى وصل إليها العلم الحديث.

بمعنى آخر «المودرنزم»، هى استمرار ودعم العلاقة بين العقل والدين. بين اكتشافات العلم الحديث وبين الأسس التى جاءت بها العقيدة. والغريب حقا أن من بين جميع أديان السماء، لا تجد مثل الدين الإسلامى فى حرصه الشديد على هذا الارتباط الوثيق بين العلم والعقيدة وهو ما يطالب به أنصار «الحداثة» فى أوروبا مثل رجل الدين «وليم صنداي» وهو يقول: «الحداثة أن تفكر وتتكلم

مقدمة

بلغة اليوم مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بكل ما هو أساسى فى معتقداتك الدينية التى ورثتها من الماضى !

عندما نتأمل هذه المواقف «المودرنزم» ونقارن بينها وبين أجيال عاصرناها فى الخمسينيات كانت ترى «المودرنزم» هى الرقص الإفرنجى. ومعرفة الفرق بين رقصات «السامبا والكونجا» نجد إلى أية حالة تدهور فيها العقل، حتى بين المثقفين لأن هذا المفهوم عن المودرنزم، كان السائد بين الشباب الذى حصل على أعلى الشهادات، وسافر ليتعلم فى اكسفورد والسوربون. وفى الوقت نفسه، كان الفكر الإسلامى يزداد انكماشاً وانغلاقاً. فى حدود ترديد أحاديث من العبادات وكيف تكون الصلاة وكيف يكون الحج، وما هى شروط الإفطار فى شهر رمضان. وكيف يكون الدخول إلى المسجد أو البيت، ومتى تقدم رجلك اليمنى ومتى تقدم اليسرى.

ثم بدأت مع تكاثر التحديات والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية، تظهر عقول تريد أن تفكر، من بين شباب بلغ سن الرشد أو كاد، فى مجتمع قامت تقاليدته على الفصل بين العقل والتفكير فى الدين. الجوائز لحفظ القرآن وليس لفهمه. والذين يتحدثون فى الدين يتشنجون - معظمهم - ويملون الأحكام ويصدرون التعليمات، وكأن كلامهم حاسم ونهائى.. وأغلب السامعين محرومون من القدرة على مناقشة ما يسمعون، وعليهم الإذعان والخضوع.. ونتيجة ذلك. أننا نحتشد فى مجتمعات عاجزة تماماً عن فهم لغة العصر. عاجزة تماماً عن المشاركة فى العلوم والفنون والابتكارات التكنولوجية التى تعتمد على قدرة

مقدمة

التمييز والإدراك والتعامل مع أدوات تتطلب سرعة البديهة والقدرة على اتخاذ القرار - ربما فى لمح البصر- وهو أمر لن يتحقق لطفل قضى حياته الأولى يحلم بجائزة حفظ آيات القرآن الكريم، وأصبح الحفظ - لا الفهم - هو السلوك الذى اعتاد عليه.

وبديهي أنه ليس من الإسلام فى شيء، ألا نواجه القضايا الأساسية بعقولنا. فهكذا طالبنا الحق بأن نتعرف على وجوده، وأنه وحده لا شريك له. وبغير ذلك يكون المنطق معكوساً، والإيمان مفلوطاً. بمعنى أن تؤمن بوجود الله عن طريق إيمانك - مثلاً - بالكتاب الذى أنزله. أى تؤمن بالكتاب قبل أن تؤمن بمن أنزل الكتاب، وتؤمن بالرسول قبل أن تؤمن بالذى بعث الرسول. إن الإيمان بالله مطلوب أولاً بالعقل وبالاقتناع العقلى. وهذا هو الضمان الأكبر لبقاء الإسلام ولإزدهار الإيمان. أن يكون الإيمان بالعقل، وأن يكون مجتمع المؤمنين مجتمع عقلاء، تكون السيادة فيه للعقل أولاً. أو بمعنى آخر، تكون السقدرة العقلية للمؤمن، لها حد أدنى من السلامة والأصالة الفطرية. وهى التى تجعل المؤمن قادراً على التصدى لتحديات عصره، وقضايا زمانه. والتى لابد أن يستخدم فيها عقله.

وبغير تحكيم العقل، تتعرض المجتمعات الإسلامية لمخاطر تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً سطحياً ظاهرياً، ويتحول هذا التطبيق إلى فرض أحكام جائرة، ومظالم بشعة، وغسيل عقول للشباب، بل للصبيبة الذين يلقون وقوداً فى حروب باسم الإسلام وهم مازالوا أطفالاً دون سن البلوغ.

مقدمة

إن التاريخ يذكر لنا، أن علماء بخارى قالوا لأميرهم فى القرن الماضى - ١٨٧٥م - إنه ليس بحاجة إلى علوم حديثة ولا أسلحة حديثة، وأنه يكفي أن يرددوا آيات من الذكر الحكيم، ثم يوجهوا أنفاسهم فى اتجاه العدو الذى هو جيش قيصر روسيا، فينصرهم الله على أعدائهم الكفار ولم يستطع أن يقاوم أمير بخارى ضغوط «المؤمنين» الذين يرفضون المقارنة بين قدرة آيات القرآن الكريم، وقدرات سلاح الأعداء الكفار. وكانت النتيجة أن سقطت بخارى وهى مدينة فى ازبكستان إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق.

إن تطبيق الشريعة الإسلامية، أمر لا يرفضه أحد. ولكن يظل بعد ذلك السؤال الملح قائما. أين العقل الذى تستخدمونه، وتواجهون به قضايا التحديث والتحدى الحضارى، وثورة التكنولوجيا. وتخزين المعلومات، والسيطرة على أبعاد مكانية وزمانية على اتساع الكون كله.

إن رئيس وزراء فرنسا، كان يصرخ محذراً الفرنسيين، بأنهم معرضون للسقوط فى هوة التخلف خلال خمس سنوات فقط، إذا لم يواجهوا متطلبات الثورة الصناعية التكنولوجية الحالية، وطالبهم بأن يتأملوا - طبعا بعقولهم - أنه فى خلال السنوات الخمس القادمة، ستخرج المصانع أجهزة ومعدات لم يسمع عنها البشر حتى اليوم. وأن هذه الأجهزة ستمثل أربعين فى المائة مما تخرجه المصانع اليوم. إنه تغيير خطير وحاسم وتحد رهيب، سوف يفرض فجوة من التخلف على من لا يلحق بالعصر فيخسر كل شيء.

مقدمة

وإذا لم يهتد المسلم الحقيقي إلى أهمية العقل، الذى تعلم أن يعرف به ربه الذى لا شريك له، فلن يهتدى أبداً إلى مشاكل التحديث المعاصرة، ذلك لأنه عرف ربه، بأسلوب التقليد والمحاكاة، أو بأسلوب لا عقلانى فتجاهل الطريق المأمون للحفاظ على الإيمان وازدهاره.

وللأسف ما زال الذى يشغل من ينجذب إلى الدين، رغبة فى إثبات الذات، أو شعوراً بالتحدى لمظاهر تستفزه، كارتداء الزى الغربى، أو الكلام بلسان أجنبى، أو ممارسة عادات أجنبية، هو بحكم ظروفه التى نشأ فيها يجهل عنها كل شىء. وأحياناً يكون الإحباط، أو اليأس من الحياة بما فيها من مظالم وأحكام تعسفية، كل هذا يكون دافعا للجوء إلى الدين عن طريق الغضب والانفعال والرغبة فى الخلاص من المآزق. أو التشفى والانتقام من الظالمين، وتتعدد الأسباب، ولكنها تعبر فى حقيقتها عن مأساة فقدان الاعتماد على العقل. وإنها لا تمثل تعبيراً صحيحاً عن الإيمان بالله عن الطريق المأمون، طريق التأمل والتفكير والتبصر بالعقل.

وهناك من يحاول تسييس الدعوة الدينية فيصورها على أنها ليست مجرد رؤية ونظام للحياة، بل هى معركة حضارية، ضد أخطار الصهيونية، والصليبية الامبريالية، والالحاد الشيوعى. ثم يضع كل هذه الأخطار فى سلة واحدة، هى سلة العلمانية فيهاجمها ويهاجم دعائها، وكأنهم الطاعون. ويرفض أن يرى فى الدعوة للعلمانية أى احتمال للتفاهم معها، أو يكون صاحب هذه الدعوة من بين المسلمين، مع أن كثيراً من المسلمين، رفعوا شعار

مقدمة

العلمانية منذ ثورة ١٩١٩ دون أن يلاقوا مثل هذه الاتهامات
الرهيبية ضدهم وإدانتهم بأنهم صهيونيون صليبيون امبرياليون!
ووقوف من ينادى بالعلمانية عند الشكل، واكتفاؤه بترديد
شعار العلمانية، هو أيضا أحد أسباب إثارة الريبة حول شعاره
الذي يرفعه.

وغالبا ما يكون شعار العلمانية مرتبطا بالديمقراطية والدعوة
لها بمفهوم ليبرالى عام وغامض.

ولن يمتحن هذه الدعوة - أيضا - إلا العقل الذى يستخدمه
المؤمن، حتى يقبل منها ما يقبله، أو يعدل فيها، أو يطورها، أو
ينتهى إلى رفضها بناء على أحكام عقله، لا بناء على انفعالات
تعتمد على استسهال ترديد الشعارات، وإطلاق الأحكام والتلويح
بالاتهامات. فقد يكون الذى نأخذه - دون أن نحس إيمان المؤمن -
من العلمانية، هو تفسير لها يرتبط بالثورة الصناعية الثالثة،
ورؤية تستمد عناصرها من تصور المستقبل، وقدرة على التبصر
بما يجرى فى «العالم» وما فيه من قوى تتربص ببعضها بعضا.
ثم يضاف إلى ذلك خيال فيه رحابة وتفاؤل بالإنسانية، وبملكوت
السماء والأرض، كما خلقه الله، وبمنظرة فيها براءة طفل، وحكمة
شيخ، وحس فنان، وعقل عالم.

إن حجر الزاوية فى كل هذا، هو العقل، فإذا لم نتمسك به، فلا
جدال ولا مناقشة، ولا دين، ولا علمانية، ولا ديمقراطية، ولا أى
شئ. وعندئذ يستطيع من يريد أن يطلق شعارا دينيا ويهتف
هتافا دينيا فيؤثر فى الجماهير، ويستطيع محرض غاضب حانق

مقدمة

ثائر، أن يصرخ ويطالب بالانتقام لأى سبب، ويندفع للتدمير والتفجير، ويجد الجماهير تنساق وراءه بغير وعى.

والدعوة للعقل، ترتبط اليوم فى أحد جوانبها، بالتحديث، بمواجهة الثورة الصناعية الثالثة، وبعيور فجوة التخلف، قبل أن تزداد اتساعا، فيتحول التخلف، إلى عزلة بين بشر وبشر، فيصبح المتخلفون وكأنهم حيوانات فى الغابات، بالمقارنة بالإنسان المتحضر. ويشار إليهم - أو إلى بقاياهم - فى أمان متقدم على أن هؤلاء كانوا يوما أصل الإنسان، على نحو ما يقال اليوم إليهم الأورانج - أوتان.

ولا شك أن غياب النشاط العقلى عند المواطن المسلم كان سببا مباشرا لازمة الإسلام والسياسة بمظاهرها المتعددة التى حاولت أن ألقى عليها نظرة فاحصة فى مجالات مختلفة تكشف لنا الخط والتزييف بين دعاوى السيطرة والتسلط التى تتستر بالدين وقد اعتمدت على غفلة المسلم والجمود العقلى الذى أصابه لتسيطر عليه وتقهره سياسيا.

فتحي غانم

الفصل الأول

رجل الدين

لعنته السياسة !

كان الشاه يستعد للفرار من طهران إلى روما. وكانت حاشيته قد أجرت اتصالات بفندق اكسلسيور بشارع «فيافينيتو» الشهير بروما كمحطة أولى للشاه في رحلة الفرار من ثورة الدكتور مصدق الذي أمم البترول الإيراني عام ١٩٥٣.

قبل أن يغادر الشاه طهران قرر أن يقوم بزيارة أخيرة، إلى رجل الدين آية الله «بوروجردى» ليستشيره، ولما دخل الشاه القاعة التى يجلس فيها آية الله على سجادة يحيط به تلاميذه، وقف الجميع احتراما للضيف الامبراطور. ما عدا رجل واحد، ظل جالسا على السجادة يصوب نظرات حادة إلى الضيف رافضا أن ينهض أو يصافحه.

الشاه يغدق الهدايا على آيات الله

وسرعان ما كانت طهران تتناقل الحادث، فى المقامى والأزقة

وفى بيوت الفقراء، إن رجل الدين آية الله الخوميني رفض مصافحة الشاه. وهكذا أصبح الخوميني على لسان الإيرانيين، فهو الرجل الذي أحدث تحولا في العلاقات التقليدية بين السلطة الدنيوية ورجال الدين أصحاب السلطة الروحية بين شيعة إيران، وكان التحالف قائما بين السلطتين والشاه يقدق الهدايا والأموال على رجال الدين، بينما رجال الدين يمنحون الشاه البركات والتأييد والدعم الروحي.

السافاك تتنبه للهوميني

وفى تلك الايام. سرعان ما خبت جذوة ثورة مصدق، وعاد الشاه سريعا من فندق اكسلسيور إلى طهران ليستقر على عرشه بينما تهستات الظروف لأن يكون النفى من نصيب الخوميني، وقد نضجت ظروف النفى بعد وفاة «آية الله بوروجودي» عام ١٩٦١.. وحدث أن ألقى الخوميني خطبة فقام طلبة جامعة طهران بطبعها وتوزيع مائة ألف نسخة منها فى العاصمة. وشعر رجال الأمن «السافاك» بالخطر، فالهوميني يعبر الحواجز التى كانت تفصل بين الطلبة كقوة تقدمية أغلبهم من اليسار، ورجال الدين كقوة محافظة أو رجعية تؤيد حكم الشاه. لقد وجد الطلبة فى الخوميني رجلا يردد من آيات القرآن «قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون» وهو عندما يخطب يرتفع صوته الحاد الرفيع مع نعومة صوت مغنى الأوبرا من طبقة الثنور، وله جاذبية وعينان مغناطيسيتان تجذب القلوب مع الأبصار والأسماع وهو يتحدث عن « المستضعفين ، والمنافقين، والظلم، والثورة الإسلامية».

الخوميني والجنرال رحيمي

قالت السافاك : مثل هذا الرجل يجب أن يختفى، ينفي من البلاد. واختار الخوميني أن يذهب إلى النجف ويعيش في أحضان وكنف سيدنا علي وأولاده رضي الله عنهم. ولكن رجال الشاه كانوا يلاحقونه، فهو يواصل ترديد تلك الآيات من سورة النمل عن الملوك، واتصالاته بالمتقنين الإيرانيين وبعض رجال الجيش الإيراني تنذر بالخطر. وعندما عقد الشاه اتفاقية مع العراق بعد وساطة جزائرية عام ١٩٧٥. وجد الخوميني أن العراق التي تهدن إيران لا تناسبه، فهاجر إلى فرنسا، حيث أقام في قرية نوفيل لوشاتو. وهناك واصل اتصالاته بالإيرانيين. ومن بينهم الجنرال رحيمي الذي اعترف فيما بعد لاريك رولو الصحفي بجريدة لوموند الذي أصبح سفيراً لفرنسا في المغرب، بأنه سافر قبل الثورة واجتمع بالخوميني في «نوفيل لوشاتو» وعاد ليدعو إلى ديمقراطية وجبهة تتحالف فيها التيارات والأحزاب السياسية المعارضة للشاه ومن بينها حزب تودة الشيوعي.. مع المطالبة ببرلمان دستوري على المثال الانجليزي أو الفرنسي والاهتمام بأن تتجنب إيران التورط في مشكلة تعدد الأجناس الذين يمثلون أقليات تصل في مجموعها إلى خمسة وأربعين في المائة من تعداد الشعب الإيراني.

وهذا الجنرال نموذج من عديدين اتصلوا بالخوميني في فترة الإعداد للثورة، وشهادتهم تدل على أن الخوميني كان يعمل بالسياسة. ويرصد القوى السياسية في المجتمع الإيراني ويسعى إلى مهادنتها في مرحلة الإعداد للثورة ثم الاستيلاء على السلطة التي سينفرد بها فيما بعد.

واستطاع الخوميني أن يقدم نفسه لقوى المعارضة كأقوى سلاح ضد الشاه. حتى رجال البازار تجار الحوانيت الصغيرة. وصانعو السجاد وأصحاب محلات الصاغة اقتنعوا بأنه سوف يحررهم من سيطرة الشركات الأجنبية الكافرة التي يتعامل معها الشاه. وكان بين رجال البازار من يخشى أن يتعامل مع المصارف الكبيرة التي يتحدث فيها الموظفون بلغات أوروبية، فاطمأنوا إلى استقلال الخوميني وتحرره من قيود الغرب.

حسابات أمريكية وسوفيتية

في الوقت نفسه كان الاتصال بخبراء الإدارة الأمريكية يقنعهم بأن الاتجاه الذي يتحرك فيه الخوميني بعيد إيران تماماً عن أي تسلل شيوعي. يهدد بتصاعد حزب تودة الشيوعي. كما أن تصرفات الشاه، وحياة الترف والبدخ تشجع كل الدعاوى اليسارية التي تحارب أمريكا وتميل إلى المعسكر الاشتراكي. كان الخوميني هو البديل الذي يكتسح كل هذه الأعراض اليسارية التي تقلق الإدارة الأمريكية. حتى أن سفير أمريكا في طهران اعترف بأنه تلكأ في مساعدة الشاه ضد تعليمات الرئيس كارتر، لأنه كان واثقاً من أن الثورة التي يقودها الخوميني تطرد الشبح السوفيتي من إيران إلى الأبد.

من ناحية أخرى كانت حسابات السوفييت تدعوهم إلى منح الفرصة كاملة للهوميني، وكانوا يرون أن سياسة الإدارة

الأمريكية قصيرة النظر، لا ترى سوى اليوم، أما الغد فلا تدرى عنه شيئاً. كانوا يتوقعون أن تسود الفوضى إيران، وينتهي الأمر بسيادة اليسار بعد سقوط الشاه وبعد فشل ثورة الخميني.

بين الشماتة والانبهار

وهكذا تهيأت الظروف ونضجت لقيام الثورة، التي تلقى ترحيباً من الداخل ومن الخارج أى من القوتين الأعظم وبدأ وانتصر الخميني قبل أن يغادر نوفيل لوشاتو، كما لو كان يقوم بمعجزة ويقود ثورة أسطورية تنتصر على امبراطور يقود جيشاً هو القوة الخامسة بين جيوش العالم يدره خبراء أمريكيون، ويتحصن بجهاز السافاك بشهرته الواسعة في البطش بالمعارضين.

وفي يوم ٣١ مارس ١٩٧٩ غادر الشاه إيران للمرة الثانية، تلاحقه أنظار شامته، بينما غادر الخميني فرنسا تلاحقه أنظار مبهورة مسحورة.

ولم يذهب الشاه إلى فندق اكسلسيور في روما هذه المرة، وكانت دواعي الأمن على حياته تقتضى بأن يجد من يلجأ إلى حمايته، ورفضت أمريكا أن تقدم له الحماية، وكشفت عن توقعاتها أن تستثمر علاقاتها بالخميني رجل الدين والإيمان العدو الأول للشيوعية والإلحاد. وبينما كان الإيرانيون يسجدون في حضرة الخميني، ويرددون وراءه هتافه «الله أكبر الله أكبر» ينطقه بلهجة عربية سليمة، كان الشاه يجد مأواه عند السادات.

باب الأمل

ولم يتردد الخميني، في أن يهاجم على الفور الرؤساء الثلاثة: الرئيس الأمريكي كارتر والرئيس المصري السادات ورئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجين، وأعلن أنه جاء ليطبق شريعة الله والدستور الإسلامي ويدعو لإقامة أمة إسلامية عالمية موحدة.

كانت دعوة لها بريق ليس من السهل إنكاره، في وقت واجهت فيه كل المشروعات الأخرى للأمة العربية أو الإسلامية نكسات متلاحقة.. شعار القومية العربية واجه أزمات الانفصال بين مصر وسوريا وفشل مشروع الاتحاد الثلاثي بين سوريا والعراق ومصر. وفشل الاتحاد مع ليبيا أو السودان والحرب معلنة بين حزب البعث القومي في العراق وحزب البعث في سوريا. أما الاشتراكية فقد لاقت هزيمة عام ١٩٦٧ ووجه لها السادات ضربات متلاحقة قبل وبعد انتصار ١٩٧٣ الذي انتعش التيار الديني في مصر، كما انتعش التيار الديني اليهودي من قبل بانتصارات إسرائيل في حرب ١٩٦٧ وأصبح باب الأمل أمام الجماهير في الأمة الإسلامية مرتبطاً - عاطفياً بما سوف تحققه الثورة الإيرانية بزعامة الخميني الرجل الأسطورة وتطلعت الجماهير إلى عالم إسلامي قوي يحرر المقدسات الإسلامية، المسجد الأقصى والقدس ويسترد حقوق «المسلمين» في فلسطين.. وأعلن الخميني مشروعه «الجمهورية الإسلامية»، ليحدد مواقف كل الذين تحالفوا معه حتى يصل إلى طهران.

شعار غامض

وبدأت عملية الفرز.. فاعترض «دفترى» حفيد الدكتور مصدق وزعيم الجبهة الوطنية على مشروع الخومينى لأنه يريد بالطابع الدينى الذى يفرضه أن ينفرد فى نهاية الأمر بالسلطة وحده وطالب «دفترى» بمقاطعة الاستفتاء على الجمهورية الإسلامية، لأنه لا يجد فيه سوى نظام استبدادى لصالح الخومينى وليس لصالح المسلمين والإسلام.

أما مجاهدو خلق، فقد ناقشوا شعار «الجمهورية الإسلامية» ما معناه؟ ما المقصود به؟ إنه شعار غامض لا يفسر شيئاً محدداً. ما أهداف الحكم غير هذه الكلمة الشائعة «تطبيق الإسلام» كيف يكون التطبيق، ما وسائل تحقيق الأهداف؟

ثورة الأقليات وأنياب الخومينى

وفى الوقت نفسه ، ظهرت الأقليات التى تكاد تصل إلى نصف الشعب الإيرانى، من عرب فى خوزستان إلى تركمان أى أكراد سنيين، إلى أكراد شيعيين، إلى بلوش، وهى أسماء قبائل لها «ستان» أى أرض، فأرض الأكراد هى كردستان وهكذا. وقد أرادوا أن تكون لهم مدارسهم التى تعلم لغاتهم، وأن يكون لهم استقلالهم الاقتصادى والثقافى. وقد طالبوا بمقاطعة الاستفتاء لأنهم وجدوا أن شعار الجمهورية الإسلامية، هو وسيلة للتحكم فيهم مركزياً من طهران أو من «قم» العاصمة الروحية التى يقيم فيها الخومينى.

وهنا كشف الخومينى عن أنيابه السياسية فى صورة فتوى

دينية أعلن فيها أن عملية الاستفتاء هي واجب « ديني » فمن لا يذهب إلى صناديق الاستفتاء يستحق العقاب لأنه ارتكب معصية.

وفي خطوة تكتيكية أخرى أعلن الخوميني، أن كل من يعارض الاستفتاء هو من أنصار الشاه. دون تفرقة بين أنصار الشاه الحقيقيين وأحزاب المعارضة التي تحالف معها الخوميني لخلع الشاه. لقد أشهر الخوميني سلاح الدين والخيانة للثورة في وجه كل من يعارضه.

ولم يتفق مع الخوميني في ذلك الموقف من بين أحزاب وقوى المعارضة سوى حزب تودة الشيوعي. وكان الأمر يبدو غريباً، ولكن استراتيجية الاتحاد السوفيتي، كانت قائمة على تشجيع الخوميني، لأنه سوف ينهار بعد أن يقضى على جميع القوى الأخرى غير الشيوعية أو سيعمل على إضعافها ليخلو الجو بعد ذلك لحزب توده بتاريخه الكبير في المجتمع الإيراني.

رحيمي يتحدى بازرجان

وتوقع الخوميني أنه مقبل على صراع كبير على السلطة. وكان لا يطمئن إلى قوات الجيش الامبراطوري، كما كان لا يطمئن إلى المدنيين الذين في الحكومة. بازرجان رئيس الوزارة، وبنى صدر رئيس الدولة. وكان لا يجد أمامه سوى «الباسدران» الحرس الثوري الذي يتكون من شباب مجند من الفقراء المعدمين يقدم لهم الطعام والماوى فيقدمون له حياتهم.

وهنا لجأ الخوميني إلى الجنرال «أمير رحيمي» الذي كان

رجل الدين لمبته السياسة

يتردد عليه قبل الثورة في «نوفيل لوشاتو» ووضعاً خطة توضح لنا قدرات الخوميني في التآمر السياسي، بصرف النظر عن مكانته الدينية.

وقف الجنرال أمير رحيمي يوم ٩ يوليو ١٩٧٩ في مؤتمر صحفى وأعلن فجأة أمام الصحفيين أن هناك مؤامرة لإبعاده عن منصبه كقائد للشرطة.

والذين يدبرون المؤامرة يريدون إحداث بلبلة في صفوف القوات المسلحة، يبررون بها مطلب إعادة المستشارين والخبراء الأمريكيين للإشراف على القوات المسلحة !

كلام خطير وغير متوقع أن يعلنه مسئول عن الأمن على هذا النحو أمام الصحفيين والمراسلين الأجانب. بعد ساعات كان رئيس الوزراء بازرجان يصدر قراراً بعزل هذا الجنرال الأحق الذى يدلى بهذه التصريحات غير المسئولة علناً ويثير ثائرة القوات المسلحة. وعقب صدور قرار العزل، وقف الجنرال رحيمي متحدياً في مؤتمر صحفى آخر وأعلن أمام المراسلين أنه لا يخشى أحداً ولا يخاف الموت. وأن «الجميع يريدون قتلى وأنا أفضل الموت على حياة الذل والمهانة والخضوع لأعداء الثورة».

وأضاف رحيمي أن البلاد أصبحت فى حاجة ماسة إلى قيادة دينية.

ولم يتحمل بازرجان هذا التحدى السافر. فقرر أن يمارس سلطاته حتى النهاية فأصدر أوامره باعتقال الجنرال رحيمي وبعض رجاله فى معتقل بمعسكر «حمشيدية».

كان غريباً ومثيراً للريبة أن الجنرال رحيمى يبدو عليه عدم الاكتراث، وهو المعروف بصلاته القديمة بالخومينى. ولكن المفاجأة الكبرى كانت فى القرار الذى جاء من «قم» يعلن أن الخومينى قد ألغى قرار اعتقال الجنرال رحيمى، بل أنه أمر بأن يتحول معتقل «حمشيدية» إلى مركز ثورى لتدريب الرجال بقيادة الجنرال حتى يكونوا قوة ترهب أعداء الثورة.

تنظيف كردستان

وهكذا وضحت نوايا الخومينى لقد قرر أن يخوض المعركة، ولن يعتمد على رجال الدين واتباعه المخلصين وحدهم، وأن يتخلص من المدنيين ويضرب المعارضة والأقليات القومية.

وأعلن الخومينى الحرب المقدسة ضد الأكراد الكفار قبل نشوب الحرب مع العراق بحوالى عام. فهاجم الباسدران قرية «اندرجاش» ثم قرية «غرنة» وأبادوا وسحقوا من تصدى لهم، وقتلوا من لجأ إلى المساجد، حتى الأطفال، ورجال الدين الأكراد رفعوا شعار «تنظيف كردستان» ويبلغ عدد الأكراد ستة ملايين. وفر كثيرون منهم خاصة سكان قرية ماريفان إلى العراق أو إلى المغارات فى الجبال.

لا فرق بين فارسى وعربى فى الإعدام

أما العرب فى خوزستان فقد لاقوا الأهوال على يد الأميرال أحمد مدنى، وهو إيرانى متعصب للفرس ضد العرب، وعينه الخومينى حاكماً لخوزستان وأصبح مقر قيادته فى الأهواز عاصمة الإقليم.

رجل الدين لمبته السياسة

كان الأميرال مدنى يفتخر بأنه فارسى من أصل آرى ونشرت الصحف الغربية فى أمريكا وأوروبا تصريحات له يقول فيها بعجرفة وزهو: إنه يتوقع أن يضع له المتظاهرون العرب قنبلة ناسفة فى مكتبه بالطابق الاول، ولذلك هو مضطر أنه يحيط مقر قيادته بالباسدران.

وبمجرد توليه السلطة اعتقل «المدنى» ثلاثمائة وأعدم أربعة عشر منهم دفعة واحدة، ثم استمر فى توقيع عقوبة الإعدام وتنفيذها يوميا.

وسأله صحفى أجنبى عن الإعدام اليومى.

— لماذا ؟

فأجاب الأميرال مدنى.

أنا لا أفرق بين فارسى وعربى فى الإعدام.

ثم أضاف ساخرا :

— التفارقة موجودة فى كل شىء إلا الإعدام.

القبض على الشيخ شوبير الخاقانى

وقبض اللواء مدنى على رجل الدين السنى الشيخ «شوبير خاقانى» فى الثمانين من عمره، وأعلن أن الشيخ متورط مع متآمرين وضعوا قنبلة فى مسجده فى «خورمشهر» وقد انفجرت القنبلة وراح ضحيتها أربعة رجال، ثم اذاع أن الباسدران عثروا عند تفتيش بيت الشيخ «شوبير» على مخزن للأسلحة !

وفى مناورة سياسية — ولا نقول دينية — أعلن الخومينى أن

يشمل الشيخ برحمته وأن ينقذه من أن يكون العوبة في يد الإهابيين، وذلك، باعتقاله في «قم» وتحديد مقر إقامته «ضيفاً» على أحمد الخوميني ابن الإمام!

وبعد أن تم عزل الشيخ عن إقليم خوزستان، قال اللواء مدني في تصريح له مغزاه «على العرب أن يدركوا أنهم ليسوا وحدهم في إيران».

كانت كلمات اللواء مدني، تعيد إلى الأذهان مشاعر فارسية قديمة تحتفظ بمرارة كالعلقم من ذكريات غزو العرب لبلاد الفرس. إن العنصرية الفارسية مازالت كامنة مستعدة للظهور إذا ما اتاحت لها الفرصة.. وهذا هو تاريخ الفرس مع العرب منذ الفتح الإسلامي. ولقد شجعت العنصرية الفارسية الخوارج الذين قالوا إن الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أخطأ بقبول التحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان.

وفي الوقت نفسه شجعت العنصرية الفارسية الإمام علي بن أبي طالب وأولاده ضد الحكم الأموي العربي.

الحرب الفارسية العربية

ولقد اتخذ الخوميني «السياسي» من الخصومة الفارسية العربية القديمة وسيلة للهجوم على أنظمة الحكم العربية. خاصة نظام الحكم في العراق. ومن خلال «الهجوم في الخارج» حصل على المبررات لتصفية المعارضة في الداخل - بالاعتقال أو الإعدام» ليجمع الإيرانيين في الداخل حول زعامته.

وكثيرون من علماء السياسة والاستراتيجية يؤكدون أنه لولا

الحرب ضد العراق، ما استمرت جمهورية الخوميني، فقد اتاحت له الحرب أن يسيطر بقبضة حديدية على مقاليد السلطة.

وانتشرت في ظل الحرب لجان الباسدران حراس الثورة، ولجان الجماعات الإسلامية، ولجان المساجد، وكلها لجان شعبية تجند المعدمين وتقدم لهم الطعام ومساعدات مالية وتهيء لهم أماكن للإقامة، وذلك مقابل استخدامهم كقوات ضاربة تفرض السيطرة والرعب على من يريد أن يفكر أو يناقش تعاليم الإمام. أو يتشكك في الحلم الباهر الذي يدعو إلى تحقيقه الخوميني، وهو سيطرة الشعب الإيراني من خلال زعامته على العالم الإسلامي والعربي.

هجوم الباسدران

ولكن ضرب الذين يستخدمون العقل والاعتماد على القوى الباطشة شبه العمياء أو الجاهلة من «حراس الثورة» أدى إلى الاعتماد على خطط «بدائية» و «ساذجة» لإدارة الحرب. فقد كانت استراتيجية الخوميني قائمة على أن «الشهادة» هي أهم هدف، فوزع صكوك الجنة على الطيارين، وعلى صبية في الباسدران، وتوالت هجمات من يطلبون الشهادة، تحصدهم نيران المدافع العراقية. وكل موجة بشرية تزف مقدما إلى الشعب الإيراني الانتصار الوشيك. هجوم مسلم بن عقيل، وهجوم فجر أول وثاني وثالث ورابع.. واستمرت الهجمات حتى سقط أكثر من مليون شهيد. وبدأت جبهة القتال تفتقد أئمن ما يحتاج إليه جيش محارب، وهم الجنود. وانطلقت دوريات من الباسدران تجوب

شوارع المدن والقرى وتدخل البيوت بحثاً عن شبان تختطفهم لإرسالهم إلى ساحة القتال. بينما فتر حماس الرجال وقلقت الأمهات وارتاب الجميع في صحة الدعوة إلى الشهادة حتى النصر.

فرحة لم تدم

ولكن في عام ١٩٨٦ بدا وكأن الخوميني يوشك أن يحقق النصر الذي يحلم به. فقد هاجمت الزوارق المحملة بالباسدران الشاطئ العراقي، واستولت على شبه جزيرة الفاو.. واجتاز شط العرب مائه ألف رجل في اتجاه أم القصر.

وتعرضت البصرة ومساحات شاسعة من الأرض العراقية لقذائف المدفعية الثقيلة. بينما كانت الصواريخ الإيرانية تسقط بين وقت وآخر على بغداد. وفي تلك الأيام العنصرية انتحر بعض الضباط العراقيين الذي لم يتحملوا نفسياً دخول القوات الإيرانية أرض الوطن.

ولكن الطيران العراقي استطاع عند تحسن الأحوال الجوية صد الهجمات المتوالية، خاصة تلك التي جاءت من الشمال في السلمانية لتطوق العراق في كماشة من الجنوب والشمال. واستطاعت الدبابات العراقية بالتنسيق مع القوات الجوية أن توقف الهجوم الإيراني وقد تبين أنه اعتمد على صفقة أسلحة أمريكية توسطت لها إسرائيل فيما عرف بفضيحة «إيران جيت».

وكان الخوميني يهاجم العراق من الشمال والجنوب ويهاجم الأمة العربية من الجنوب في العراق ومن الشمال في لبنان. التي

تحولت إلى قاعدة لعمليات العنف وتهديد الغرب ومساومته باختطاف الرهائن الأمريكيين والأوروبيين الغربيين ثم المساومة على الإفراج عنهم مقابل صفقات سلاح وقطع غيار وعندما سقطت الصواريخ العراقية على طهران ثم بقية مدن إيران خاصة قم وأصفهان تحول الموقف بصورة حادة، من توقعات للنصر الإيراني، إلى صدمة للشعب الإيراني الذي ضحى بشبابه وأمواله ليصل إلى هذه النتيجة الفاجعة.. سقوط الصواريخ عليه كالمطر.

الأنفاس الأخيرة

كان الخميني لا يستطيع أن يتراجع عن الحرب، ولا يستطيع أن يواصلها. وكان على يقين بأن بقاءه في السلطة رهن باستمرار الحرب. ولم يبق إلا العناد. والاعتماد على التطرف. ورفض كل مقترحات ومشروعات السلام من الأمم المتحدة. ورفض قرار مجلس الأمن رقم ٥٨٩ الذي يدعو إلى إيقاف القتال والدخول في مفاوضات سلام.

كان الخميني يعلم أنه قد ربط أنفاسه الأخيرة بالثورة والحرب. فلو توقف توقفت أنفاسه ولو استمر احتفظ بحياته.

وأعلن الخميني تأييده للعناصر المتطرفة في انتخابات مجلس الشورى الجديد. وأعلن أنه مع الفقراء. وألقى أحمد الخميني خطاب أبيه في حفل افتتاح البرلمان، فأعلن تمسكه بمواصلة الحرب.

كان حماسا أشبه بصحوة الموت، فقد تلاحقت الهزائم وساءت الأحوال في الداخل، فقتساءل تجار البازار عن السبب في نقص

الفصل الأول

البضائع. وانتشرت المظاهرات تشكو الحرمان أو ارتفاع الأسعار غير مكترثة بحماس المتطرفين، ولم تعد للباسدران تلك السطوة القديمة فقد تهشمت أسنانهم في الحرب وأعلن الخوميني منع المظاهرات - وسحب بعض قوات الجيش من ميادين القتال لمواجهة القلاقل في الداخل. ثم قرر أن يقوم بمحاولة أخيرة يائسة انتهت بهزيمة معركة شرق بحيرة الأسماك، ثم طرد القوات الإيرانية من شبه جزيرة الفاو ثم الشلامجة، وأصبر الخوميني قراره بأن يتسلم رفسنجاني سلطات القائد العام نائباً عنه. لقد اختار رفسنجاني لأنه كان على اتصال بالولايات المتحدة في صفقة الأسلحة. وهو أقرب رجاله ميلاً للتفاهم مع الغرب.

وكان القبول بقرار مجلس الأمن وإيقاف القتال.

وهو قرار ينبئ بأن نهاية الخوميني قد اقتربت. وأنه يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

صراع السلطة

وعلى الفور بدأت معركة الخلافة في انتظار موته. وكان آية الله منتظري هو الخليفة الذي اختاره الخوميني، ولكنه استقال وتناكر للخلافة التي تراث نظام قام على الإعدام والتعذيب. هذا مع أن منتظري كان يشرف على عمليات حزب الله في لبنان.

وفي يوليو ١٩٨٨. أرسل منتظري إلى الخوميني رسالة اتهام جاء فيها :

سعادتكم، آية الله المعظم، الإمام الخوميني مع تحياتي، فيما يخص أمركم الأخير بإعدام المنافقين المسجونين. إن الشعب

يتقبل إعدام من ألقى القبض عليه مؤخراً أثر الأحداث الأخيرة التي قام بها مجاهدى خلق فهذا لا يمثل ضرراً فى الظاهر.. ولكن الوضع مختلف عند إعدام من كانوا فى السجن قبل الأحداث.

إن هذا يفسر على أنه قائم على الكراهية والانتقام ومعظم عائلات المسجونين مؤمنون وثوريون وسيبتعدون عنا. ومعظم المسجونين عدلوا عن أفكارهم السابقة ولكن المسئولين المتطرفين أصروا على إعدامهم. وفى المرحلة الحالية ونحن نتعرض لهجمات صدام حسين وهجمات المنافقين يعتبرنا العالم ووسائل الإعلام ضحايا. وليس من مصلحة النظام أو مصلحة سعادتك قلب هذا الاتجاه. إن إعدام سجناء سبق الحكم عليهم بأحكام غير الإعدام وليس لهم جرائم جديدة بمثابة تحدى للأحكام ولحجية الحكم. وهناك العديد من الأبرياء أعدموا بعد أوامرهم الأخيرة. والعنف والإعدام لم يثمر.. وأثار ضدنا الإعلام وكان لمصلحة المنافقين وأعداء الثورة ومن المفيد أن نظهر التسامح لنكسب التأييد. أما إذا كنتم مصرين على أوامركم فنطالب بأن تكون بالتصويت وبالإجماع بين القاضى والمدعى العام ومستول المخابرات عند الإعدام وألا تعدم النساء خاصة أمهات الأطفال. إن إعدام آلاف الأشخاص فى الأيام الأخيرة سوف يكون له رد فعل.. وقد أصاب الحزن القضاة المؤمنين بسبب أحكام الإعدام والحديث النبوى الشريف يقول : «ادرءوا الحدود بالشبهات» فالإمام أن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة.

حسين على منتظرى

٣١ يوليو ١٩٨٨

وتوالى رسائل منتظري. تحدد موقفا سياسيا معارضا، حتى استقال. وكان هذا أسلوبه فى الاستعداد لكسب شعبه فى انتظار الخلافة. بعد أن واجه حربا عنيفة عندما اختاره الخومينى خليفة له. فقد تحالف هاشمى رفسنجانى وخامينى عليه وشهرا بأحد أقاربه وهو «مهدي هاشمى» فاعتقل بتهمة الفساد والرشوة، ثم أعدم، وتلوث اسم منتظرى بهذا التشنيع وكان لابد له من أن يقوم بعملية مضادة لإنقاذ سمعته، فانتهاز الفرصة لكتابة رسائله للخومينى ثم يستقيل.

خيوط السلطة

فى أصابع رجل يحتضر

ولقد ظل الخومينى يشرف على لعبة صراع الخلافة حتى لفظ النفس الأخير. فاستغل العداء بين منتظرى ورفسنجانى وبعد أن عين منتظرى فى الخلافة، دعم التيار الذى يميل إلى الغرب المتمثل فى رفسنجانى، فكان منتظرى يمثل تطرف حزب الله بينما رفسنجانى يمثل إمكانية الحوار مع أمريكا ودول الغرب.

ولكن لعبة السلطة عند الخومينى. كانت أكثر تعقيدا. فبينما كان يعتمد على منتظرى فى ناحية ورفسنجانى فى ناحية أخرى. أجرى اتصالات مع بنى صدر فى ٢٧ اغسطس الماضى يدعوهُ إلى العودة إلى إيران. والخومينى يعلم أن بنى صدر عندما كان رئيسا للجمهورية رفض تعيين رفسنجانى رئيسا للوزراء وقال إنه لا يصلح أن يكون وزيرا ولا نائبا لوزير فكيف أوافق على تعيينه رئيسا للوزارة ؟

رجل الدين لعبته السياسة

كان الخوميني يجمع الخيوط المتنافرة بين أصابعه حتى وهو يحتضر وكان يدير الصراع بين مجلس الوصاية الذي يرأسه محمد إمامي كاشاني، ومجلس الشورى الذي يرأسه رفسنجاني. ومجلس الشورى يسن التشريعات. ومجلس الوصاية يعطل إصدارها. لأنها ضد الشريعة - مثلاً - ولقد سرى الموت إلى الأصابع التي تجمع بين هذه الخيوط، وإذا كان مجلس الوصاية قد اختار تنصيب خاميني زعيماً روحياً فهذا لا يعني أكثر من اسدال الستار - مؤقتاً - على ما سوف يجرى في الخفاء، وإن كانت الخصومات والعداوات بين القيادات التي تركها الخوميني، معروفة للجميع، وما زالت قواعد اللعبة في السياسة.. والدين الإسلامي منها برىء.

الفصل الثاني

المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحديث عن الإسلام والسياسة له أكثر من مجال ولكن أهمها في تصورى، هو موقف الإسلام من القوى السياسية الكبرى فى عالم اليوم. فالإسلام ليس مجرد ذكريات وتاريخ، بل هو قبل كل شيء ممارسة للحياة. والسياسة ليست بدورها مجرد ذكريات وتاريخ، وإنما هى ممارسة للحياة. وإذا كان الإسلام عقيدة دينية يحكمها منهج إلهى، فالذى يحكم السياسة حتى يومنا هذا هو قانون الغلبة.

ولابد من الاعتراف بالواقع، وهو أن قوى الحضارة الأوروبية الغربية قد تغلبت على قوى الشعوب الإسلامية، واحتلتها عسكريا، وتفوقت عليها حضاريا. هذا كلام واضح، لا ينكره ألا من يريد أن يعيش كالنعام، يدفن رأسه فى التراب حتى لا يرى أخطار الواقع وتحدياته.

والمجتمعات الإسلامية، التى تغلبت عليها سياسيا وعسكريا قوى الحضارة الأوربية سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية، واجهت الهزائم فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر، حتى القرن العشرين. وهى فى تصورها، تطبق أحكام الشريعة الإسلامية، وتتبع منهج الدين وتتمسك بتقاليده وتعاليمه.

ولقد واجهت مجتمعاتنا الإسلامية، هذه الهزائم السياسية العسكرية. منذ أيام نابليون بونابرت بأحد موقفين رئيسيين. موقف ينادى بالإصلاح الدينى، وفتح باب الاجتهاد، واتهام المجتمع الإسلامى الذى يزعم بأنه يطبق الشريعة الإسلامية، بالجمود والتخلف، وعدم فهم الإسلام كما ينبغى. والذى تبنى دعوة التجديد والإصلاح هذه، هو جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده.

وفى مقابل هذا، قام آخرون يطالبون بالأخذ بالثقافة الأوربية، وأن ندرسها وأن نأخذ ما يفيدنا منها. ولقد اهتم أغلب هؤلاء، بالنظريات والفلسفات الأوربية، كما لو كانت أوربا هى هذه النظريات، وليست مجتمعات بشرية، وصلت إلى نظرياتها وحققت فلسفاتها من خلال تجارب بشرية، وأزمات واجهها الناس فى حياتهم اليومية، لا فى صفحات الكتب، التى ينقل عنها مفكرنا الكبار.

ولقد حدث للأسف الشديد، صراع بين التيارين، أو الموقفين الرئيسيين، فأنصار التجديد والإصلاح الدينى، ساروا فى طريق، وأنصار الأخذ بالثقافة الأوربية ساروا فى طريق، فأصيب

المنافقون باسم الإسلام

المجتمع بازدياد معطل في الثقافة، لا يسمح بتطوير سليم لهذه الثقافة أو تلك، وكان أخمر وسائل العلاج لهذا الازدياد، تلك الدعوة للتوفيق بين الثقافتين، ثقافة إسلامية عربية، وثقافة أوربية. وهي دعوة شديدة الغموض، لا تفلح في أغلب الأحوال، إلا في اخراج مثقفين منافقين أو انتهازيين، يستطيعون الحديث بلغة مزدوجة، وبوجهين، وجه إسلامي أحياناً، وجه أوربي غربي أحياناً، دون أن تكون هناك أصالة حقيقية لهذا الوجه وذاك.

والمشكلة كما أتصورها، لا تبدأ من الثقافة، سواء كانت إسلامية أو أوربية، وإنما تبدأ من الإنسان ذاته، وهل هو مؤهل لاستخدام ملكاته العقلية، بحيث يستطيع أن يواجه مسئولياته على أي مستوى، مواجهة صحيحة.

المطلوب أولاً، القدرة السليمة على التفكير. وليس المطلوب أولاً عملية توفيق بين ثقافتين. أو اللجوء إلى أساليب النعام بدفن رؤوسنا في تراب الماضي وذكرياته. أو اللجوء إلى أساليب القروء. نقلد ما نراه في المجتمعات الصناعية المتقدمة والمتفوقة عسكرياً ومادياً. دون أن نستوعب معنى التقدم الذي نقلده، ونخضعه لما تصلح به حياتنا.

وهناك من فقد الثقة تماماً في كل هذا، فرفض الحاضر بكل مشاكله وزعم لنفسه، أن العلاج في الدعوة هو استرجاع أيام السلف الصالح، والعودة إلى مجتمع الخلفاء الراشدين.

ولست أدري ما صلة الدين بهذه الدعوة ؟

إنها أولاً دعوة مستحيلة، فالماضي لا يعود، وإعادة أيام

السلف الصالح ضرب من الوهم، وحنين رومانتيكي ساذج إلى ذكريات مهما كانت روعتها وأمجادها، إلا أنها ستظل مجرد ذكريات، وإذا كان المطلوب هو أن نعود إلى القيم التي تعامل بها السلف الصالح، واتباع قواعد سلوكهم، فالمطلوب أيضا عودة نفس النماذج البشرية المثالية التي عرفتتها مجتمعات ذلك الزمان الذي انقضى. ومن يستطيع أن يسترجع إنسانا كأبي بكر الصديق، أو عمر بن الخطاب، أو علي بن أبي طالب، أو عثمان بن عفان.

وحتى لو استعدنا واسترجعنا هذا المجتمع بشخصياته، وهذا لا يدخل في باب الدين والإيمان، بل يدخل في باب استحضار الأرواح. فإننا لا نستطيع أن نستعيد أيام أبي بكر، دون أن نستعيد حركات الردة ومسيلمة الكذاب.. ولا نستطيع أن نسترجع أيام عمر دون أن نسترجع قاتله، والذين عارضوه، وكرهوا أيامه، ومن بينهم مجتمعات إسلامية توارثت هذه الكراهية حتى يومنا هذا. فمن يستطيع أن ينطق باسم عمر في البصرة بالعراق، أو يسمى ابنه باسم عمر في إيران.

وكذلك الذين يحلمون باستعادة أيام علي، لن يهربوا من عودة الخوارج والأمويين، والذين سفكوا دماء علي وولديه الحسن والحسين وذبحوا أهله وعشيرته.

ولا نستطيع أن نستعيد أيام عثمان بن عفان، دون أن نستعيد الفتنة. والنزاع الدموي على توزيع الثروات. ومن هو أحق بأموال المسلمين.

المنافقون باسم الإسلام

إن حديث استعادة الماضي، ليس حديثاً في الدين، وهو وهم مستحيل. وأيضاً وهم خادع ومضلل، يروح ضحيته آلاف من المسلمين تضيق أيامهم في انتظار الوهم الذي لن يتحقق، وتتعطّل طاقاتهم وتتبدد جهودهم وهم في حالة الانتظار.

الذين ينادون باستعادة الماضي يزيّفون التاريخ، ويتجاهلون الأحداث التي جرت، والتناقضات والصراعات التي نشبت والتي واجهها الرسول عليه السلام، وهو يؤدي رسالته.

ولقد حدثنا الشهرستاني عن هذه الصراعات، والتي تسبب في معظمها المنافقون.

وأخطر أنواع المنافقين، أولئك الذين يتظاهرون بالغيرة الشديدة على الإسلام. ويتشددون في المطالبة بتطبيق الشريعة.

ولعل قصة ذي الخويصرة التميمي لها دلالتها. فقد ذهب هذا التميمي متشنجاً إلى الرسول عليه السلام وقال له :

– اعدل يا محمد فانك لم تعدل.

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

– إن لم أعدل فمن يعدل ؟

فعاود اللعين قائلاً للرسول عليه الصلاة والسلام :

– هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى.

فكان هذا التميمي المتشنج والمتحمس للعدل، يهتم به، ويدافع عن وجه الله تعالى. أكثر من الرسول !

وهذا مثل على نموذج معروف في النفاق. ومثله وجدناه في

معركة أحد بين الذين انتقدوا الرسول بعد المعركة وقالوا :
لو كان لنا من الأمر شيء.. ما قتلنا ها هنا.

ويقول الشهرستاني : هذا ما كان في زمان الرسول عليه
السلام وهو على قوته وصحة بدنه. والمنافقون يظهرون
الإسلام، ويبطنون النفاق.

حتى في اثناء مرض الرسول وهو في فراش الموت، روى
البخاري أن الرسول طلب دواة وقرطاسا، ليكتب كتابا يوجه فيه
نصائحه الأخيرة للمسلمين حتى لا يضلوا بعده.

فقال عمر : إن رسول الله عليه الوجد، وحسبنا كتاب الله وكتر
اللغة بين الصحابة واختلفوا. فأمرهم النبي وهو في فراش
مرضه أن يغادروا حجرته قائلا :
- لا ينبغي عندي التنازع.

وكان ابن عباس يرى في تصرف عمر، رزية رزء بها
المسلمون إذ حال بينهم وبين الكتاب الذي كاد أن يمليه الرسول
عليه السلام.

والخلافا بعد وفاة الرسول اشتدت بين المسلمين، حتى إننا
لو راجعنا تاريخ الإسلام، لوجدنا دماء المسلمين التي أريقَت بيد
المسلمين، أكثر مما أراقته أيدي الأجانب.

إن الذين يزعمون أنهم قادرون على استعادة أيام السلف،
وأيام الخلفاء الراشدين. أشبه بالمنافقين الذين يتظاهرون بالغيرة
والحماس. ويطالبون «بالمناظر» و «المواقف» التي تستثير
الحماس والنشوة، ولو كانت قلوبهم تعرف الإيمان الحقيقي،

المناقضون باسم الإسلام

وعقولهم قد اقتنعت بحقيقة الدين ومنهاجه، لانصرفوا إلى الحاضر يواجهونه بضمايرهم وعقولهم المؤمنة، التي لا تتهرب من الواقع الذي سبق وإن هزمها. لا تتهرب من الصاروخ إلى الناقة ومن القنبلة الذرية إلى السيف، فهذا هو الخداع الذي يلغى العقل ويلغى بالتالي الدين، ولا يحفظ منه إلا مشاهد تاريخية يعيش بها الناس مضللين.

إن الممارسة الحقيقية للعقيدة تكون من خلال أعمال الفكر في قضايا الحاضر. لا مجرد الاعتماد على تذكر أحداث وقعت في الماضي. ومحاولة لوى ذراع الحاضر وضغطه في قالب الماضي، ثم محاولة الكذب على الماضي، وتصويره، وكأنه كان خاليا من الصراعات والخلافات والمشاكل ومظاهر الضعف الإنساني في كل صورها وأبعادها.

إن النفاق، هو الذي يزين الماضي اليوم، كما لو كانت أيام فجر الإسلام وصدره، نعيما خالصا، ومجتمعاً نموذجياً مثالياً.

ولن نستعيد عقولنا، حتى نتخلص من هذا الوهم. ولن نتغلب على الهزال الفكري الذي انتشر بيننا، حتى ندرك أننا في حاجة إلى عقولنا، وأنها أهم من مجرد تقليد ما قرأناه أو سمعنا به عن أيام مضت.

ولن نخرج من ظلمات الجهل والنفاق، حتى ندرك أن التقوى الصحيحة، هي تقوى العقل، وتلك التي يدعمها العلم.

أما تحويل الناس إلى مجرد أنفار وأرقام، متشابهة، في الملابس وفي إطلاق اللحية، وفي ترديد نفس الكلمات، والمناداة الصارخة

المتشنجة بنفس الشعارات باسم التقى والورع. وتحويل النساء إلى شياطين شهوة، لابد من اعتقالها داخل حجاب سميك، وإعلان أن مجرد صوت المرأة قد يكون فتنة، والذي يقرر ذلك أى رجل مصاب بهوس أو مرض نفسى، فلن يؤدي هذا إلا إلى تحويل مجتمعات المسلمين إلى مجتمعات عبيد. سادتهم يعيشون فى قصور باذخة فى الاندلس وشواطئ جنوب فرنسا وإمارة موناكو، وقصور هوليود ووالاس ولاس فيجاس.

وقد استراح هؤلاء السادة تماما إلى ما وصل إليه هؤلاء المسلمون فقد تحولوا إلى إمعات لا تفكر يحكمها باسم الشرع طغاة قساة لهم دعاة متشنجون، يزعمون أنهم يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر.

هذا هو ما يتمناه اعداء الإسلام التقليديون. وما أكثرهم فى الغرب والشرق. وما أكثرهم بين من يزعمون نفاقا أنهم سادة بين المسلمين أو بين العرب.

جماعات إسلامية.. أم بيادق

فى صراع السياسة العالمية

تتعامل القوى السياسية الكبرى فى العالم مع المجتمعات الإسلامية، باعتبار أن الإسلام ليس عقيدة دينية تصلح لجميع البشر. بل هو حضارة مرتبطة بمكان جغرافى !

لذلك تجد كثيرين، يعقدون المقارنات بين الإسلام وأوروبا. أو يتحدثون عن الإسلام فى آسيا، أو إفريقيا، وكان الإسلام مجتمع جغرافى له حدوده لا يتعداها. مع أن الإسلام جاء لهداية الجميع،

المتأفقون باسم الإسلام

سواء كانوا من سكان الاسكيمو فى القطب الشمالى، أو من سكان الغابات فى خط الاستواء !

وهناك عجز فاضح فى الحضارة الغربية الأوربية، فى فهم الإسلام وحقيقته، وهم يقولون عن المسلمين، إنهم اتباع «محمد» باعتبار أن الرسول ﷺ قائد عظيم، وسياسى عبقري، وزعيم روحى، ولا يزيد على ذلك !

وأحيانا يتحدثون عن المسلمين، قائلين إنهم الاتراك، ويستعملون كلمة «تركى» كمرادف لكلمة «مسلم» وغالبا ما يتهمون «الأتراك» بأنهم طغاة مستبدون، وأنهم أصحاب طباع عدوانية، وأمزجة شرسة، ويقولون إن الإمبراطورية العثمانية، هى أسوأ وأبشع نظام حكم استبدادى فى تاريخ البشرية.

وهذا التصور من جانب الغرب، شارك فيه مفكرون كبار من أمثال «مونتسكيو» صاحب نظرية فصل السلطات. السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية. فقد هاجم الاستبداد الذى مارسه سلاطين آل عثمان الذين كانوا خلفاء للمسلمين.

ولكن فولتير، كان مفكرا حرا شريفا، فقرأ عن الإسلام جيدا، ودافع عنه دفاعا قويا... واعترف به عقيدة إنسانية سماوية تدعو للعدالة، ولا ينبغي اتهامها بأنها تدعو لحكم استبدادى. وقال إنه حتى بين سلاطين آل عثمان، كان بينهم رجال على مستوى رفيع من التقوى والعدالة والثقافة. وقال أيضا إنه لا يوجد نظام حكم فى العالم بأسره، يخلو تماما من شبهة الاستبداد بدرجة ما.

وليس غريبا أن دفاع فولتير عن الإسلام، لم يلق تشجيعا من

الناشرين أو المؤرخين في الغرب. وتجاهله تماما المستشرقون الذين كانوا يدرسون المجتمعات الإسلامية لخدمة أغراض الاستعمار الغربى فى بلاد المسلمين.

وبلغ من سوء فهم الغرب للمجتمعات الإسلامية، أنه وضع مقاييس للتقدم الحضارى خاصة به، وأراد أن يطبقها على مجتمعاتنا، فإذا لم تنطبق عليها المقاييس الغربية، فهي مجتمعات متخلفة. والغرب فى هذا، أشبه بمن يريد أن ينظر إلينا، فلا يرى صورتنا الحقيقية، بل يرى صورته هو، وكأنه ينظر لنفسه فى المرآة. وهذا أمر مستحيل.

وهكذا سادت فى الغرب، أفكار خاطئة، ولكنها ثابتة عن المجتمعات الإسلامية، باعتبارها مجتمعات استبدادية متخلفة، وأنها تمثل حضارة تاريخية انتهى زمانها، مثلما انتهت من قبل الحضارة الفرعونية، أو الحضارة الإغريقية !

وترتب على ذلك، أن جماعات من اليهود «الاسكنازيين» من أبناء الحضارة الغربية، استطاعوا أن يتحالفوا مع قوى الغرب، وأن يزعموا أنهم وحدهم القادرون على حمل مشعل الحضارة فى الشرق الأوسط، فى وجه الطغيان والاستبداد. ومن الأقوال المشهورة التى يرددونها فى إسرائيل، أنهم ممثلو حضارة الغرب، الذين يحافظون عليها.

ويترتب على ذلك، أن الشائعات فى الغرب، أن بلادنا ستظل متخلفة، لأنها تؤمن بعقيدة الإسلام، وأن هذا التخلف يشمل مساحة جغرافية بامتداد المجتمعات الإسلامية.

المنافقون باسم الإسلام

وحتى الآن، لا تجد القوى السياسية الكبرى في العالم ما تخشاه، بصورة جدية مما يسمى باليقظة الإسلامية، بل إنها تعمل على الاستفادة منها، والتسلل إليها للتأثير عليها، وعلى قيادتها.

وأول صور الاستفادة الغرب مما يسمى باليقظة الإسلامية، كانت في تركيا في الخمسينيات، بعد الحرب العالمية الثانية، فقد ظهرت الدعوة للرجوع إلى الإسلام، باعتبار أن كمال أتاتورك، كان علمانياً، وضربت جماعات متطرفة، عصمت اينونو، رفيق الكفاح مع أتاتورك، بالحجارة، وحدث أن كان رئيس الوزراء «عدنان مندريس» في طريقه إلى مؤتمر ينعقد في لندن لبحث القضية القبرصية، فتخطت طائرته بالقرب من «جاتوك» في إنجلترا ولقي خمسة عشر من مرافقيه مصرعهم على الفور، ونجا «عدنان مندريس» بأعجوبة، فعاد إلى تركيا، كواحد من أولياء الله الصالحين من أصحاب الكرامات في موجة من الدعوة إلى الإسلام، تطورت إلى زيارة الرئيس الأمريكي ايزنهاور إلى تركيا، وتحالفا مع أمريكا ضد العدو السوفيتي، وتكشف الجماس الديني، عن عملية سياسية ضد العلمانية والشيوعية !

أما في الثمانينيات، فنحن نشهد تجربة «الثورة الإسلامية» في إيران، التي تحارب مسلمين آخرين بأسلحة أمريكية، تحصل عليها، أو على قطع غيارها من إسرائيل.

ويقول «آيات الله» للصبيان الذين يخوضون الحرب، إنهم يستشهدون فيدخلون الجنة. ولكن الذين يمدونهم بالسلاح

الفضل الثاني

يقولون لأنفسهم، إن الذى يقتصر هو السلاح الذى نبيعه، والذى يكسب هو صناعة السلاح.. والذى يجنى الأرباح هو تاجر السلاح أما هؤلاء الذين يستخدمون السلاح، ويموتون، فهم فى كل الأحوال تحت رحمة سلاحنا.. ولا بأس أن يهلكوا، أو تضعف قدراتهم.. وتستنزف دماؤهم، وهم يقاتلون بعضهم بعضا.. وليرفعوا الشعارات باسم الإسلام.. ويتهم بعضهم بعضا بالكفر والالحاد.. وليزعم بينهم من يزعم بأنه صاحب الكلمة العليا فى شئون دينهم. فكل هذا لن يصمد فى وجه قوتنا الجبارة، التى تستطيع إبادة البشر جميعا فى تلك المنطقة من العالم.

وطبيعى، أنهم يدركون بالمقاييس العلمية الموضوعية، أن الدعاوى التى يقبناها أولئك الذين يزعمون أنهم يقودون المجتمعات الإسلامية إلى الصلاح والفلاح، إنما هى دعاوى سطحية، ليس لها شأن أو خطر.. فى حد ذاتها، وهى بعيدة تماما عن أن تعيد لهذه المجتمعات قوتها، كما كانت فى الماضى.. عندما كان المجتمع الإسلامى، يقود الفكر العالمى، ويطوره، ويعيد صياغته، سواء كان فكرا يونانيا، أو هنديا، أو فارسيا. أما الدعاوى السطحية التى يدعون إليها الآن، فهى وإن اتخذت من الإسلام قناعا.. إلا أنها تعكس ظاهرة الجهل والمرض والفقر فى تلك المجتمعات. وهى علامة من علامات تخلفه، وليست علامة من علامات صحته وتقدمه. وهى تعبر عن غضب وضيق، من جماهير محرومة من العلم، حاصرها الفساد وانقطاع سبل الرزق الشريف، حتى وصلت إلى مشارف اليأس. فأصبح من السهل انصياعها وراء دعوة باسم الدين. لا يعلم إلا الله وحده، من سوف يستفيد منها فى نهاية الأمر.

المنافقون باسم الإسلام

وهناك رأى قوى، يتبناه مراقبون سياسيون فى الغرب، أنه لابد من مراقبة ومحاصرة هذه البلاد.. مع مراعاة أن أوضاع المسلمين وأفكارهم.. لن تخرجهم من التخلف الذى يعانون منه. وأن هذا التخلف إذا كان مفيدا من ناحية إنه لا يطور هذه المجتمعات، بحيث تصبح ذات قوة سياسية عسكرية كبرى تنافس الغرب أو تزعجه. إلا أن هذا التخلف.. يخلق من ناحية أخرى فراغا، إذا لم يهيمن عليه الغرب، فلا بد أن تهيمن عليه الشيوعية.

وقد تتحول الجماعات التى تزعم أنها إسلامية، إلى قوة مدمرة.. وتحطم النظم القائمة.. والأوضاع السائدة فى المجتمع، ولكنها فى نهاية الأمر، لابد - مثل أى ثورة - أن تحرق نفسها بنفسها.

وهكذا تتناول النظرة إلى التيارات الدينية، مواقف الجماعات التى تدعو إليها، وقياداتها التى تحشد الناس حولها، باعتبار أنها بيدق على رقعة الشطرنج.

واحتمالات عقد الصفقات السياسية، قائم باستمرار، مع هذه القوة العظمى أو تلك.

ولتحلم الجماهير كما تشاء، فى باكستان.. أو فى إيران، أو فى السودان. أو فى أى دولة إسلامية، بأمجاد الإسلام وعظمته، وقد تعبر الجماهير عن طاقاتها المكبوتة البائسة.. بالهدم والتدمير وسفك الدماء.. فهذا شأنها، وإذا أرادت أن تنتحر، فلتنتحر.. المهم أن تستمر السيطرة على الأرض، كموقع جغرافى استراتيجى بين قلب القارات الثلاث.. أوروبا وآسيا وأفريقيا. وأن تستمر السيطرة

على الأرض المدفون في أعماقها أكبر احتياطي من النفط في العالم. فهذا هو الهدف المنشود، حتى إذا هلك جميع البشر على تلك الأرض.

الإسلام والشيوعية

ماذا يقول التاريخ ؟

التاريخ يقول، إننا لو نظرنا إلى خريطة العالم الجغرافية، وحددنا المساحات الجغرافية التي حكم فيها الإسلام ومارس سلطاته، لوجدنا أن أغلب هذه المساحات، قد أصبحت خاضعة لأنظمة حكم شيوعية.

مثلا :

تلك المساحات الكبيرة من خريطة العالم التي تحتلها أوروبا الشرقية، إنها نفس المساحة التي كان يحكمها خليفة المسلمين السلطان العثماني المسلم، الذي كان يحكم رومانيا وبلغاريا والبلقان - اليونان وجمهريات الاتحاد اليوغوسلافي والبنانيا، ووصلت جيوشه إلى مشارف فيينا عاصمة النمسا.

وتكاد تتطابق خريطة الحكم الإسلامي في شرق أوروبا أيام العثمانيين، مع خريطة الحكم الشيوعي.

وهناك استثناءان واضحا في أوروبا، لهذه القاعدة، التي تتطابق بين الحكم الإسلامي في الماضي، والحكم الشيوعي، بالنسبة لأوروبا.

أولهما : أسبانيا التي حكمها المسلمون زهاء ثمانية قرون، فهي ليست شيوعية الآن.

المناهقون باسم الإسلام

وثانيهما : اليونان، التي لم تستقل عن الحكم العثماني الإسلامي، حتى القرن التاسع عشر، فهي ليست شيوعية. ولكن هذين الاستثناءين، في نظر هؤلاء المراقبين السياسيين، يثبتان القاعدة، أكثر من غيرهما، لأنه في كلتا الحالتين - إسبانيا أو اليونان - كان المجتمع سيتحول بالفعل إلى الشيوعية، لولا تدخل قوى عسكرية خارجية، قاومت هذا التحول إلى الشيوعية، وأوقفت مسيرته بالقوة.

حدث هذا في إسبانيا، عام ١٩٣٦، عندما تولت الحكم حكومة شيوعية، فتدخلت قوات هتلر النازية، وقوات موسوليني الفاشستية، في حرب أهلية لضرب الحكم الشيوعي في إسبانيا، وكانت هذه الحرب، هي التي أبعدت الشيوعية عن إسبانيا.

ونفس الشيء حدث في اليونان، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فقد اندلعت ثورة أعلنت قيام حكومة شيوعية، ولولا تدخل الجيوش البريطانية التي أرسلها تشرشل على عجل لتحارب الشيوعيين، لكان الأمر قد اختلف ولدخلت اليونان مجموعة الدول الشيوعية الأخرى في البلقان وشرق أوروبا.

الاستثناء إذن، أثبت القاعدة، فحيث كان يحكم الإسلام في أوروبا، انتهى الأمر إلى حكم شيوعي، فيما عدا حالتى إسبانيا واليونان، وكلاهما لجا إلى قوات خارجية لمنع تطبيق الحكم الشيوعي الذي استولى على الحكم لفترة بالفعل.

ومثل آخر من التاريخ:

في آسيا تعيش المجتمعات الإسلامية في وسطها وعلى أطرافها

الفصل الثانى

هذه القارة الضخمة ذات المساحات الهائلة فى سهول ممتدة من تركيا وإيران غربا، حتى حدود الصين شرقا، وقد تحولت المجتمعات الإسلامية فى هذه المناطق إلى الشيوعية، وأصبحت جمهوريات فى الاتحاد السوفيتى.

وأخر تجربة، مرت بها هذه المجتمعات الإسلامية فى وسط آسيا، هى التجربة الافغانية حيث استدعى الحزب الشيوعى الحاكم، قوات الاتحاد السوفيتى، ليستعين بها لتدعيم حكمه على البلاد.

وحيث توجد تيارات تزعم أنها إسلامية، يتوقع المراقبون السياسيون، وجود تيارات شيوعية.. ولقد كان موسولبنى يقول : إن تحت القمصان الفاشستية السوداء التى يرتديها أعضاء حزبه، تختفى القمصان الشيوعية الحمراء. ويقول المراقبون السياسيون فى الغرب : إن تحت التيارات التى ترفع الدعاوى - المختلفة أو المتناقضة - باسم الإسلام، تختفى تحت تيارات شيوعية.

ومن أعجب ما قرأت، فى تفسير انتشار الشيوعية فى ايطاليا، وقوة الحزب الشيوعى فى جنوب ايطاليا بالذات، هو أن هذا الجنوب قد وصل إليه الحكم الإسلامى أيام الامويين، وقد احتلوا صقلية وجنوب ايطاليا. ولذلك تهيا - منذ ذلك الزمن البعيد - المناخ النفسى والاجتماعى، لقبول الفلسفة الشمولية الشيوعية، بعد أن عرفت هذه الاقاليم فى الماضى، شمولية الإسلام.

ولو سألنى أحد، ما رأيك فى هذا الكلام، لقلت : إنى اعترض عليه، رغم أنه قد يبدو مقنعا لأول وهلة.. ولكنه يكتفى بنظرة

المناهقون باسم الإسلام

سطحية، تعقد صلة فيها تعسف شديد، بين دين ومنهج إلهي، ونظام حكم سياسى.

فالإسلام، ليس حقيقة جغرافية. إنه منهج إلهي لكل البشر في كل مكان. والاقرب إلى العقل، هو أن جميع البلاد التي كانت تحت حكم الإسلام، تمثل بصورة أو أخرى، حضارة مختلفة عن حضارة الغرب الأوربي المعاصر، وذلك بصرف النظر عن الديانة المنتشرة في الغرب أو الشرق.

واختلاف الحضارات، هو الذى يفرق بين المجتمعات، وقد يميز بينها، أو يقيم العداوات بينها.

والحكم الإسلامى فى كل العصور، منذ أيام الخلفاء الراشدين، حتى أيام الخلافة العثمانية، كان يشمل مجتمعات غير إسلامية كثيرة، ولها حضارات متعددة، من فارسية أو هندية أو يونانية أو فرعونية، فكان أشمل من الحضارات ومن المساحات الجغرافية.

ولكن الحروب والصراعات بين الحضارات، كانت تقع، حتى بين أصحاب العقيدة الواحدة، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين.

فالحرب الصليبية، التي كان طابعها المميز، هو الدين، وشعارها انقاذ بيت المقدس، كانت فى حقيقتها حروب غزو ونهب وسلب بين أبناء حضارات مختلفة، بصرف النظر عن الدين، حتى لو كان يجمع بينهم.

بدليل أن أكبر عملية نهب للكنائس والكنوز المسيحية فى بيزنطة فى الشرق، تلك التي قام بها الصليبيون القادمون من الغرب ! فبعد أن حشدوا حشودهم، واكتملت قواتهم، وأخذوا

الفصل الثاني

تمويلهم وتمويلهم من تجار البندقية. خطر لهم أن الغنائم التي سوف يحصلون عليها من نهب كنوز بيزنطة المسيحية، أكبر من أى غنائم وأسلاب يحصلون عليها وهم يحرقون بيت المقدس، فاتجهوا بسفنهم إلى القسطنطينية ونهبوها ونهبوا كنائسها فيما وصفه المؤرخون أبشع عملية نهب فى التاريخ.

وبالمثل، كان أخطر ما تعرض له المسلمون فى الأندلس، وجرجان، وبخارى، وسمرقند، هم قبائل المسلمين، والحروب التى لا تنقطع بين «امرائهم» و «سلاطينهم».

فالحضارات، هى التى تختلف، وأسباب الرزق والمصالح الدنيوية، والطمع والجشع، والرغبة فى الحصول على الثروات، هى التى تثير الفتن والحروب.

وقانون الغلبة للأقوى، هو القانون الذى فرض نفسه فى تاريخ المجتمعات الإسلامية أو غير الإسلامية.

أما الدين - فى هذا المجال - فهو للأسف الشديد، يتحول عند أصحاب الأطماع إلى شعار يرفعونه لحشد الناس، وإثارتهم وتحريكهم، كوقود فى معارك لصالحهم.

وما أكثر السذج والمطحونين، أو أصحاب النوايا الطيبة، والاحلام البسيطة فى حياة أفضل باسم الدين، ولكن الطريق إلى جهنم - كما يقولون - مفروش بهذه النوايا ومغطى بأشلاء أصحابها، الذين انصاعوا لمن قادوهم إلى التهلكة.

وإذا كان الرأى الذى يتردد بين المراقبين السياسيين فى الغرب، هو أن المجتمعات الإسلامية، هى التى تمهد الأرض

المناقشون باسم الإسلام

السياسية للهيمنة الشيوعية، فالغرض واضح من ترديد هذه المقولات.

فهى دعوة صريحة إلى عدم الثقة فى هذه المجتمعات من جانب قوى الغرب السياسية، مهما كانت الأسباب.

ولعل هذا يفسر لنا الارتباط الاستراتيجى بين إسرائيل والولايات المتحدة، فإسرائيل تمثل مجتمعا غير إسلامى، وهو بذلك محصنة ضد الشيوعية، على عكس المجتمعات الإسلامية المحيطة بها !

وإسرائيل تستفيد من الترويج لهذه الأفكار فى الغرب، فطالما ظلت قناعة المفكرين والقادة السياسيين فى الغرب. إن المجتمعات الإسلامية قد تتحول فى أية لحظة إلى الشيوعية لسبب أو آخر. سيظل اعتمادهم مطلقا على إسرائيل. وسيفضلون تحمل ما يصيبهم من أضرار نتيجة تحيزهم لإسرائيل، على أن يخسروا المنطقة بأسرها بتحولها إلى الشيوعية إذا أفلت الزمام من حكامها. وهو أمر محتمل فى تقديرهم، وعلى ضوء ما يتابعونه من أفكار متخلفة، ودعاو جاهلة تزعم أنها تتحدث باسم الإسلام، وتنبئ فى تقدير قوى الغرب بأن هذه المجتمعات لن تستطيع أن تصمد حضاريا فى صراع القوى فى عالم اليوم.

وبعد سقوط الشيوعية استمر الاتهام موجهًا للإسلام. بأنه العدو البديل للشيوعية فإذا لم تتحول الشعوب الإسلامية إلى الشيوعية فهى ستتحول إلى قوى معادية تريد استعادة سيطرة الإسلام على العالم وهذا أخطر من الشيوعية على حضارة العالم. ولذلك يجب التصدى له ومحاصرته بكل قوة.

الطائفية والتعصب

إذا صحت القاعدة التي تقول إن كل فعل له رد فعل، مساو له في القوة، ومضاد له في الاتجاه. فإن الكثير من مظاهر الأزمة التي تعاني منها المجتمعات العربية الإسلامية اليوم هي ردود أفعال للسيطرة والغزو الاستعماري عليها في القرن الماضي.

لقد كان تمزيق العالم العربي الإسلامي، وتوزيع أراضيه على القوى الأوروبية الغربية هو أهم مشاغل ساسة وحكام أوروبا في القرن التاسع عشر.

وفاز بنصيب الأسد في الأسلاب والغنائم، الأسد البريطاني، الذي كان، في ذلك الوقت، أقوى الحيوانات السياسية الاستعمارية في الغاب. فاستولت بريطانيا، على كل الممرات والأراضي التي تعيش فيها مجتمعات عربية إسلامية، في الطريق بين أوروبا وآسيا.. وكانت الهند أكبر جوهرة في القارة الآسيوية، والتي حكمها المسلمون لعدة قرون، مطمعا دائما للسياسة البريطانية، واعتبروها جوهرة في التاج البريطاني، يؤمنون طرق الوصول إليها، بدءا من جبل طارق عند مدخل البحر الأبيض المتوسط في الغرب، إلى مالطة وقبرص، ثم مصر وقناة السويس، عند اتصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر، وفلسطين، والسودان، وعند مدخل البحر الأحمر في الجنوب وامارات الخليج والعراق. وكلها بلاد تعيش فيها مجتمعات إسلامية عربية. سيطرت عليها بريطانيا، كمواقع هامة، وقواعد لا غنى عنها، لمن يريد أن يسيطر على العالم.

المتأفقون باسم الإسلام

وكان هدف السيطرة، أهم من أى شىء آخر حتى لو كان فيه قهر أو ظلم لسكان هذه الأراضى.

وحتى يبرر المستعمر أفعاله العدوانية، زعم أنه جاء إلى هذه المجتمعات، ليدخل عليها الحضارة، وأسباب المدنية، ولأنها مجتمعات متخلفة. وإذا كانت عقيدة غالبية سكان هذه المناطق هى الإسلام، فليكن الهجوم أيضا على هذه العقيدة، باستخدام فرق من «المستشرقين» يقومون بتصوير وصياغة المجتمعات الإسلامية وتراثها الثقافى، كما لو كانت هذه المجتمعات ولا صلة لها بكنوز الثقافة الإسلامية، التى لا يستطيع أحد أن يتجاهلها، بفنونها وصناعاتها، ومعمارها، وبما حققته من انجازات علمية فى الفلك وعلم الجبر والبصريات والكيمياء والطب والصيدلة كل هذا التاريخ الحضارى، تحدثوا عنه، كما لو كان نتاج حضارة أخرى، غير حضارة العرب، وكما لو كان الذين حققوه، أبناء عقيدة أخرى، غير عقيدة الإسلام.

وتنافست دول أوروبا فيما بينها، على انتزاع هذا الجزء من الأراضى أو ذاك، حيث يعيش المسلمون، فجاءت فرنسا واستولت على المغرب، بطول شاطئ شمال إفريقيا، الذى يواجه الشاطئ الفرنسى على الجانب الآخر من البحر الأبيض، وقررت فرنسا أن تحول الجزائر إلى قطعة من الأرض الفرنسية، وتلغى تماما الشخصية العربية الإسلامية لسكان هذه المنطقة. وكانت تريد أن يتحول الجزائريون «العرب» و «المسلمين» إلى عبيد أو خدم للسيد الفرنسى صاحب المزارع والكروم والمصانع فى الجزائر الفرنسية.

واستولت فرنسا في شرق البحر الأبيض على الشام الكبير،
أي سوريا ولبنان.

أما إسبانيا، فاحتلت الأراضي التي تواجهها في الشاطئ
الافريقي. وأطلقت عليها اسم مراكش الإسبانية.

واستولت إيطاليا على ليبيا. وكان النزاع في أوروبا على
الأسلاب. التي هي الأرض العربية التي تعيش فيها المجتمعات
الإسلامية على أشده فقبل أن تنشب الحرب العالمية الأولى عام
١٩١٤ كان قياصرة ألمانيا وقوادها العسكريون، يطالبون بنصيب
ألمانيا القيصرية في عملية النهب هذه، وخرجت من ألمانيا الأفكار
التي تبناها «هيرتزل» لينادي بأقامة إسرائيل. ولكن قبل هيرتزل،
كان هناك من ينادي بأقامة مستعمرة ألمانية في فلسطين، وطالب
ساسة ألمانيا بأن تكون هجرة الألمان إلى فلسطين والشام، لا إلى
الغرب الأمريكي، لأن فرص الحياة، والسيطرة متاحة بالاستيلاء
على أراضي العرب المسلمين، في ذلك الموقع الاستراتيجي
المسمى بالشرق الأوسط.

وقام الألمان بالتحالف مع السلطان العثماني خليفة المسلمين،
بإقامة خط سكة حديد من برلين إلى الاستانة، إلى بغداد كوسيلة
عملية للتنفذ في الأراضي العربية الإسلامية، واختراق النفوذ
البريطاني والفرنسي الذي احتل مناطق شاسعة من هذه
الأراضي.

وخلال كل هذه العمليات الاستعمارية كانت سياسة الغرب،

المتأفقون باسم الإسلام

تقوم على تجريد المسلمين، وبالتالي الإسلام، من كل أسباب الحضارة ومظاهرها.

عاملوا الإسلام، كما لو كان قوة سياسية جغرافية، محصورة في منطقة محددة من العالم، وليس عقيدة سماوية، جاءت لهداية البشر من كل الأجناس.

رفضوا التفاهم مع المجتمعات الإسلامية على أساس المساواة، ومبادئ العدالة، أو حتى مبادئ القانون الدولي. وأصروا على أن تكون العلاقة بين سيد ومسود، ومتحضر ومتخلف وقوى وضعيف.

أطلقوا دعاوى، بأن المجتمعات الإسلامية، تتنافر تماما مع المجتمعات الأوروبية المسيحية.

لماذا ؟

لأنه، حيث كان يعيش المسلمون مع المسيحيين في اسبانيا، كان لابد من حرب، انتهت بخروج المسلمين من اسبانيا. وحيث كان يعيش المسلمون مع المسيحيين في اليونان أو بلغاريا.. كان لابد من عزل المسلمين عن المسيحيين. وحتى في العصر الحالي، لم يستطع المسلمون الأتراك، التعايش مع المسيحيين اليونانيين في قبرص، فكان الانفصال ونفس الشيء تعرضت له لبنان!

وعلى هذا الأساس الخاطيء في فهم حقائق التاريخ، نشطت دعاوى معاصرة، تطالب بطرد الجزائريين والمغاربة من فرنسا، وطرد الأتراك من ألمانيا. وتدعو إلى تقسيم لبنان بين طوائفه المختلفة.

ولو تأملنا هذه الدعاوى، لوجدنا أنها تزيف التاريخ. لأن المعارك التي نشبت كانت بين استعمار غربي، ومجتمعات عربية، قد تكون عقيدتها الغالبة هي الإسلام، ولكنها تضم أبناء من المسيحيين العرب، كانوا ومازالوا من قادة الفكر العربي القومي، وساهموا بأوفر نصيب في بناء المجتمعات العربية الإسلامية، ودافعوا عنها بدمائهم وأموالهم.

والمستفيد الأول من الدعاوى التي تريد، تقسيم المجتمعات على أسس طائفية وعقائدية، هو إسرائيل. وهي تمثل ذروة «الفعل» الذي ارتكبته قوى الحضارة الغربية، لتضمن استمرار سيطرتها على المنطقة التي تعيش فيها. ولقد ساهم كثيرون من المستشرقين ممن يؤمنون بالصهيونية، في صياغة العقلية الغربية الأوروبية والأمريكية، صياغة عدوانية ضد المجتمعات العربية الإسلامية، وما زالت حتى اليوم القصص والمسلسلات التليفزيونية والرسوم الكاريكاتيرية، والاستعراضات الهزلية تصور العربي المسلم، في صورة الهمجي تاجر الرقيق المتخلف عقليا، المستسلم لشهواته وحريمه. أي أن العدوان الدعائي والإعلامي لم ينقطع. وطالما هناك من يواصل هذا العدوان. لا بد أن تتوقع ردود أفعال، ولا بد أن يفقد البعض اعصابه، أو يندفع في غضب ويواجه الحق بالحق، والتعصب بالتعصب ومثل هذا الاندفاع، تحركه نفس الأفكار الخاطئة، التي يذيعها المستشرقون في الغرب ويرحب بها، كل صاحب مطمع في أن إضعاف المجتمعات العربية، واحداث فتن طائفية بين أبنائها، وإشاعة أن

المنافقون باسم الإسلام

العقيدة الإسلامية، لا تعرف كيف تتعايش أو تتفاهم مع أصحاب العقائد السماوية الأخرى.

وهذه أزمة حقيقية، تأخرنا في مواجهتها، بدليل، أنه ليس لدينا «مستغربون» أى دارسين للمجتمعات الغربية، بإبعادها الجغرافية والسياسية، ومن خلال فهم وتحليل تراثها الثقافى والحضارى. وذلك على نحو ما يفعل «المستشرقون» فى دراسة مجتمعاتنا.

إن فهم الذى يجرى، ودراسته، هو الضمان الذى نستطيع أن نقدمه، حتى نتخلص من أخطار التورط فى اندفاع عصبى وأعمى وغير مدروس، لممارسة مظاهر حققد ضد كل ما هو غربى وينتمى إلى حضارة الغرب.

إن مثل هذا التورط، هو فى حد ذاته استسلام لما يكيدون له فى مجتمعاتنا حتى ونحن نصرخ، وإسلاماه. فهى ليست سوى صرخة رد فعل من نفس نوع السموم التى تدخل علينا وإن كانت مضادة فى الاتجاه. ويتوهم السذج وحدهم بأنهم يصرخون لنصرة الدين.

الأقلية والأغلبية

من الظواهر الجديرة بالملاحظة والتأمل، إن كثيرين من الذين يبنون أفكارا متطرفة باسم الدين، يتعاملون مع الآخرين الذين يخالفونهم الرأى بخشونة وعصبية، وأحيانا يحرصون على الظهور وكأنهم أقلية فى مجتمع أغلبية ضدهم. وهو أمر غريب، من جماعات تزعم بأنها تدين بالإسلام فى مجتمعات أغليبتها من المسلمين، والشريعة الغالبة فيها هى شريعة الإسلام.

ولقد تعودنا في الماضي، وفي مصر بالذات، على أن يكون الخلاف في الرأي في مسائل الدين، لا يخرج الناس من دينهم. ولكن الذي يحدث في الحاضر، هو أن التطرف في الرأي، تصاحبه مشاعر يأس واحباط، وفقدان الرجاء في أى شيء قد يأتى من هؤلاء الآخرين، الذين لا يتفقون مع الرأي المتطرف ولا يؤيدونه. وغالبا ما تتحول مشاعر اليأس، إلى طاقة تدميرية، تريد القضاء على كل ما يعترضها، أى يتحول الرأي، فيما قد نتصوره، أمرا من أمور الدين، إلى موقف سياسى من نظام الحكم، يسعى إلى فرض نفسه، بوسائل لا صلة لها بالديمقراطية، واحترام الرأي والرأى الآخر، ولا تستمد شرعيتها من إيمان بها قائم على الاقتناع، بل هي آراء واجبة التطبيق والتنفيذ بالقهر والإرهاب المعنوى أحيانا والمادى أحيانا أخرى.

ولو راجعنا هذه المواقف المتطرفة، والنفسيات والعقليات التى تتبناها، لوجدنا أنها في كثير من مظاهرها، ترجع إلى مجتمعات إسلامية كان يعيش فيها المسلمون، كأقلية، وسط أغلبية لا تتفق معهم في الدين. وكان من أبرز هذه المجتمعات، مجتمع الهنود المسلمين، الذين كانوا أقلية، وسط أغلبية هندوكية، ولقد لجأ الاستعمار الانجليزى إلى السيطرة على شبه القارة الهندية، بسكانها بتعدادهم الضخم الذى يصل إلى مئات الملايين، باستخدام التفرقة العنصرية والطائفية والدينية. وتحت شعار «فرق تسد» وكانت هذه هي الوسيلة المضمونة، لسيطرة عشرات الآلاف من الجنود الإنجليز، على مئات الملايين من الهنود. ولقد انتهى أمر الهند إلى تقسيمها إلى دولتي الهند وباكستان، ليعيش

المنافقون باسم الإسلام

المسلمون الهنود في مجتمعهم الإسلامي، ودولتهم الإسلامية، وخضعت باكستان في بداية تكوينها، لصيحات المتطرفين باسم الإسلام، والذين كانوا يوجهون غضبهم في الماضي نحو الإنجليز والهنود الهندوكيين ثم وجهوا طاقاتهم الغاضبة، نحن مجتمعهم، فأقاموا المذابح للمتقنين من المسلمين في باكستان بدعوى أنهم خارجون على الإسلام، أو مرتدون، أو كفار. والذي يريد أن يعرف المزيد عن الأحوال التي ارتكبوها في باكستان، عليه أن يرجع إلى ما عرف بتقرير القاضي مينر، الذي رأس إحدى لجان التحقيق في مذبة من هذه المذابح، ليرى كيف ينفجر الإرهاب ليقتل ويدمر ويخرب في اندفاع أعمى وبزعم أن هذه هي الدعوة إلى الصلاح والفلاح، وهي لا تزيد على هجمة هستيرية جامحة لا عقل لها.

وفي دراسة نشرها مركز الأبحاث لمنظمة تحرير فلسطين في عام ١٩٦٥ - أي منذ عشرين عاما - عن سياسة إسرائيل الخارجية، وهي من تأليف إبراهيم العابد. جاء شرح للأساليب التي لجأت إليها إسرائيل في محاربتها للعرب وكيف أنها أخذت عن السياسة الاستعمارية الانجليزية، أسلوب فرق تسد، وأنها استعانت بآثار النعرة الدينية، وقامت بدور ملحوظ، في إثارة الهند ضد التجمع الإسلامي في باكستان بمناسبة الخلاف بين الدولتين حول كشمير.

وتابعت إسرائيل باهتمام، كيف انفصلت «الأقلية» المسلمة في الهند، عن «الأغلبية» الهندوكية، وكيف حصلت الأقلية على قطعة أرض خاصة بها، وجعلت منها دولة خاصة بها فمثل هذا

الفصل الثاني

التصرف، يؤيد تماما من وجهة نظر إسرائيل، أخقية الأقلية اليهودية بأرض تقيم عليها دولتها بين أرض العرب المسلمين. وكما انفصلت باكستان الإسلامية عن شبه القارة الهندية، تنفصل إسرائيل اليهودية، عن شبه القارة العربية.

ومن هنا، نستطيع أن نتتبع تلك المادة السامة، التي دخلت مجتمعنا الذي لم يعرف فيه المسلمون أنهم «أقلية» فى أى وقت من الأوقات، ثم بدأت تنتشر بين بعض الجماعات تلك الأفكار المستوردة، والتي يتعامل بها المسلم كأقلية مضطهدة، أو بعقلية الأقلية المنبوذة.

والإصرار على تأكيد ظاهرة الأقلية، هو الطابع الذى يفضح هذا التيار الذى شجعتة إسرائيل، وهو تيار لا يهتم فى المقام الأول بقضايا اجتماعية أو اقتصادية، لأنه لو كان يتبنى قضية لتحسين مستوى معيشة الناس، فما أكثر الذين يعانون من مشاكل اجتماعية واقتصادية، ويريدون تحسين أحوالهم المعيشية.. وليس المطلوب من أصحاب الدعوة، أن يكون لديهم شعور بأنهم الأكثرية، بل المطلوب أن يظل احساسهم قويا بأنهم الأقلية المنبوذة التى لا تثق فى الآخرين. وترى فيهم أعداء من الكفار الواجب القضاء عليهم، ولا تحسين لأحوالهم المعيشية !

فالغضب والنفور من المجتمع، والانعزال عنه، ومعاملته كعدو، كل هذه هى مداخل لتحويل هذه الفئة من «الأقلية» إلى قوة ضاربة قادرة على الإتيان بأعمال العنف والإرهاب، دون أدنى اهتمام بما قد يمس الناس فى مجموعهم من أضرار وأذى، لأنهم

المناقضون باسم الإسلام

يمثلون «الأغلبية» التي لا تستحق.

والإسلام الحقيقي، كما عرفناه، هو دين الفطرة، أى أن الإنسان لو ترك لفطرته، وبداهته، لكان مسلماً، ومعنى هذا، أن الإسلام بالضرورة هو دين الأغلبية الساحقة للبشرية جمعاء.

وقد تعلمنا من كبار العلماء، أن الإنسان الذى يفكر ويتأمل ويتدبر، صادقاً جاداً، ليتعرف على وحدانية الله. ولكنه ظل حتى وفاته يفكر فى هذا الأمر، دون أن يقطع الشك باليقين، فهو يموت مسلماً. لأنه يموت محتفظاً بفطرته، ولأن الأصل فى البشر أنهم مسلمون. وليس كما يزعم هؤلاء الدخلاء الجدد، أن الأصل فى البشر أنهم كفار، وأن القلة هى المسلمة.

ولكن النظرة التى جلبتها الحروب مع إسرائيل هى التى أدخلت عقلية الأقلية، ونفسية الأقلية التى تتفق تماماً مع الديانة اليهودية التى تقوم على تمييز فئة قليلة من البشر من دون الناس أجمعين، اختصهم الله، برسالته.

وإنه لما يدعو للأسى حقاً، أن تفسد العلاقات بين مسلمين ومسلمين، وعرب وعرب أو بين مصريين ومصريين، يمثل هذه الأفكار التى توالدت أو باضت وأفرخت، فى أوكار سياسات الاستعمار ومبدأ فرق تسد. ثم مع الحرب السياسية والإعلامية والنفسية، التى صاحبت ومهدت للحروب العسكرية بين العرب وإسرائيل، وأشاعت فيها إسرائيل مبدأ نصره الأقلية وحققها فى الانفصال عن الأغلبية والحصول على أرضها ودولتها.

وهكذا انتقلت إلينا العدوى، وإذا بالدعوة إلى الأقلية

الصهيونية، تأخذ طابع الدعوة إلى أقلية تحتكر الإسلام. وقدما قال ابن خلدون: إن المغلوب يتأثر بطباع الغالب. أى أن هذه الدعاوى التي تأخذ طابعاً إسلامياً، هى فى حقيقتها، دعاوى نفوس خضعت للهزيمة والاحباط وعلينا أن نعالجها لتشفى من هذا الاحباط وتستعيد فطرتها السليمة، وتعود إلى أغلبيتها التي انعزلت عنها وهجرتها.

الهجوم الثالث وأخطاء الحكام

إن محاولة ضرب الإسلام بالمسلمين، هى المحاولة الثالثة الكبرى فى تاريخ الإسلام للهجوم عليه.

وأولى هذه المحاولات - كما نعرف - كانت مع بداية عهد الدعوة، وبعد وفاة الرسول ﷺ وكان طابع هذه المحاولة هو «الخروج» من الإسلام، والارتداد إلى الكفر، وتاريخ الخلفاء الراشدين، ابتداء من أبى بكر الصديق إلى على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - هو فى أحد جوانبه تاريخ مواجهة تيارات الردة والانشقاق والخروج من العقيدة «الجديدة» توقعاً لانتهاى أمرها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفشلت هذه المحاولة، فانتشر الإسلام، وقويت شوكة المسلمين، وامتد حكم الخلافة الإسلامية على كل مكان متحضر فى الأرض، حتى كانت المحاولة الثانية لضرب الإسلام بالهجوم عليه بمحاولة غزوه واقتحامه. فإذا كانت المحاولة الأولى، هى محاولة «خروج» من الإسلام، فالمحاولة الثانية هى محاولة «دخول» على الإسلام بغزوه، واقتحام معاقله. وأخطر هذه

المنافقون باسم الإسلام

المحاولات، تلك التي قام بها التتار بقيادة هولاكو. ودخولهم بغداد، واسقاطهم لحكم الخلافة الإسلامية العباسية. ولقد حمل هولاكو معه دعوة تنادى، بأن الحاكم العادل الكافر أصلح للناس من الحاكم المسلم الظالم. واضطر علماء بغداد إلى الإذعان لرأيه، وإقرار شرعيته! وقد وقعوا في حرج شديد، حيث طرح هولاكو القضية، وهو يملك قوة السلاح وبطش جيشه الجبار، وأقام تناقضا بين العدل والحاكم المسلم، مع أن من حق المسلمين اختيار حاكمهم العادل، وتقويمه إذا أخطأ بل عقابه إذا ظلم أو ارتكب جرما. ولكن افكارا خاطئة، تصورت أن الحاكم معصوم من الخطأ هي التي سمحت بأن يجمع الحاكم بين سلطة الحاكم وارتكاب المظالم دون مساءلة أو حساب.

وعلى أية حال، شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى، أن يكشف التتار بأنفسهم، أنه لا بقاء لهم، إلا بالدخول في دين الإسلام، فحيث كانوا مهاجمين غازين، تحولوا إلى مسلمين يحكمون بشرع الله.

ومن محاولات اقتحام الإسلام و «الدخول» عليه عنوة، تلك الحملات الصليبية التي هاجمت المجتمعات الإسلامية لعدة قرون، وكانت نهايتها التار:
العربية الإسلامية به
العشرين، ثم انسحابهم بعد
هذه المنطقة، مدعمة بكل قو

ونحن الآن بصدد محاولة ثالثة تتخذ أسلوبا جديدا في الهجوم

على الإسلام، وهي محاولة ضربه، وتمزيق المجتمعات الإسلامية، لا بالخروج عليها، ولا بالدخول فيها. ولكن بضربها من الداخل، وعن طريق اثارة المسلم ضد المسلم. فاليقظة الدينية الصحيحة والصحية، التي يستعيد بها الناس في المجتمعات القائمة على أصول إسلامية وحضارة وتراث إسلامي، هويتهم، وشخصيتهم الحقيقية، تنقلب فجأة من يقظة إلى فتنة، ومن اتجاه إلى التنوير إلى اتجاه إلى التعقيم، ومن تفتح للاجتهاد والاعتماد على العقل كنعمة كبرى أنعم بها الله على الإنسان، إلى مزيد من الانغلاق، والاعتماد على «النقل» لا «العقل» أى اعتماد على نصوص محفوظة بغير فهم، وترديد كلمات بغير ادراك صحيح لمعانيها ومراميها. ينقلها أو يتناقلها من «أسلموا» أنفسهم لمشيشة أفراد يفكرون لهم، ويستخدمونهم جنوداً لهم يزعمون أنهم جنود الله، وهم فى حقيقة الأمر جنود حاكمين بأمرهم.

والسؤال الذى يفرض نفسه، هو كيف نواجه هذه الفتنة، وهي أخطر محاولة ضد الإسلام. لأنها تضربه من داخله، وفى صميمه فهي ليست محاولة خروج أو دخول عليه، إنها محاولة انفجار فى الداخل. يتولى فيها المسلمون القضاء على بعضهم بعضاً. تحت تأثير أحدث الوسائل فى الحرب النفسيسية، وغسل العقول، وتوجيهها إلى حيث يشاء من يتآمر عليها.

والاجابة عن السؤال تشمل عدة نقاط:

أولها فى رأى: ضرورة الاعتراف باخطاء سبق ارتكابها من جانب السلطات، ضد يقظة دينية صحيحة وسليمة، كان التعامل

المناهقون باسم الإسلام

مع ما يشوبها من انحرافات، بأساليب بوليسية جائرة، بينما كان الواجب التعامل معها بالحوار والاحترام الكامل للمشاعر، والثقة فى أن من يدعو إلى الدين، يمثل غالبية ساحقة، نواياها طيبة، وأهدافها شريفة، ومعاناتها حقيقية، وسعيها صادق لمواجهة أزمات وتحديات نعجز عن مواجهتها، ولا معنى لتطبيق العجز على مشجب أصحاب النوايا الطيبة.

والأمر الثانى لمواجهة أى تطرف أو انحراف باسم الدين: هو العمل على تجنب أى شقاق وخلاف بين أهل السنة وأهل الشيعة، خاصة الحرب الإيرانية العراقية، فتحت أبوابا للشقاق تؤدى إلى تهية أسباب ضرب المجتمعات الإسلامية من الداخل.

إن القتال بين إيران والعراق، لن يجد تفسيره الحقيقى فى الدين، والخلافات المذهبية الدينية. إن تفسيره الحقيقى نجده فى السياسة ومصالحها الدنيوية، وفى أطماع السلطة والهيمنة السياسية.

والذى يتجاهل هذه الحقائق، عليه أن يتجاهل أيضا أن السلاح الذى يستخدمه المتحاربون، مصنوع فى مجتمعات غير إسلامية لا صلة لها بالسنة أو الشيعة، واستخدام السلاح، ووسائل الحصول عليه، وتوفير امكانيات صيانتة واستيراد قطع غياره، أشد تأثيرا فى توجيه الحرب من أى حديث مفتعل عن خلافات دينية أو مذهبية، ولا يصح أن تساعد على تعميقها بل الواجب المسارعة برأب أى صدع، وسد أى فجوة، وهناك بين علماء السنة وعلماء الشيعة، كثيرون تجمعهم نبالة القصد، وفضيلة التقى

والورع وخشية الله سبحانه وتعالى.

والأمر الثالث الذي لا بد من الإحاطة به: هو مسئولية القيادات السياسية، في اللعب بالنار، والمناورة باسم الدين، واستخدام الحماس الديني، لدفع الشباب وقوداً في عمليات اتمارية إرهابية، يقوم بتحويلها حكام وأصحاب أموال، حتى أصبح أمامنا مشهد يتكرر، لشباب فقير متحمس لدينه، يجد من ينفق عليه ببذخ، ويقدم له السيارات التي يبلغ ثمنها عشرات الآلاف من الجنيهات ليفجرها، وينفق عليه ليوزع نشرات مطبوعة تتكلف طباعتها ملايين الليرات أو البنانيير !

وإذا لم تعدل القيادات السياسية التي تمارس هذه اللعبة النارية المدمرة، عن أسلوبها هذا، فلا بد أن تزداد النار اشتعالاً حتى تلتهم الذي يلعب بها. ولكن أية مكاسب يجنيها المجتمع الإسلامي من هذا العبث بالنار!

وأية خسارة تلحق بالمجتمع الإسلامي إذا نسى حكامه ذلك السؤال، الذي طرحه هولاءكو يوماً ما . عن أيهما أصلح، حاكم مسلم ظالم، أم حاكم عادل كافر، ونضيف إلى السؤال سؤالاً آخر. أيهما أصلح، حاكم يستغل الإسلام في المناورة السياسية، أم حاكم يؤمن بأن الإسلام، هو العدل وإعلاء قيمة العقل واحترام حقوق الإنسان ؟!

الفصل الثالث

الإسلام عقيدة

علمانية !

لم تعرف مصر الصراعات الدينية، لا بين أصحاب العقيدة الواحدة ولا بين أصحاب عقائد مختلفة. وهذه الحقيقة، واحدة من أهم ملامح العبقريّة المصريّة. وإذا نظرنا حولنا - نظرة جغرافيّة أو تاريخيّة - سوف نرى، مجتمعات أخرى كثيرة، تعرضت لأبشع ألوان الصراع الديني والمذهبي، واقتتل فيها أصحاب الدين الواحد، وأقاموا المذابح وسفكوا الدماء فيما بينهم. والهجرة الأوروبيّة إلى أمريكا، قامت على عناصر كثيرة من الهاربين من الاضطهاد والمذابح الدينيّة التي ارتكبتها طوائف مسيحية ضد بعضها البعض. مذابح البروتستانت، والهجوتوت والصراع الدموي الذي مازال قائما حتى اليوم في أيرلنده بين الكاثوليك والبروتستانت.

وكذلك عرفت المجتمعات الإسلاميّة هذه المذابح، سواء بين

الفصل الثالث

شيعة وسنة، أو غيرهما من الطوائف والفرق الدينية، حتى شاع بين البعض أن هناك حديثا نبويا شريفا، بأن أمة الإسلام سوف تتفرق إلى اثنتين وسبعين فرقة، وفرقة واحدة من بينهم، هي التي سوف يكتب لها النجاة، أما الباقون فمصيرهم جهنم وبئس المصير !

والذى انقذ مصر من هذه الصراعات الدينية، ليس الصدفة، ولكنه جهد عبقرى قام به مصريون متحضرون على مستوى رفيع من الثقافة، سألوا منذ آلاف السنين الاسئلة الهامة، التى يسعى إلى معرفة الاجابة عنها، كل إنسان يحترم نفسه ويفكر فى لحظات حياته، كحظات مثمرة منتجة ولا يفكر فى حياته كموظف فى مكتب فى القاهرة خائف ولا يكسب رضاء رؤسائه بغير النفاق.

كان السؤال المصرى هو، من الذى خلقنا؟ وكانت الاجابة، ومن قبل أن تهبط الرسالات، أنه لابد أن يكون للكون خالق واحد. وهى ليست اجابة بسيطة، أو سهلة، فى عالم تسيطر عليه قوى كثيرة، وتتصارع فيه مصالح متعددة ومتناقضة، مما يشجع كل قوة على أن تختار لها رمزا يتفق مع مصالحها وتجعل منه إلها تحاول أن تفرضه بالقوة على الآلهة التى يعبدها الآخرون.

الإجابة المصرية جاءت ومن قبل انتشار الوحى، وتعاليم السماء، لتقول إن خالق الكون هو إله واحد، مع كل ما لابد وأن يترتب على هذه الاجابة من نتائج، منها أن يرتفع البشر، مع استمرار الإيمان بالتوحيد، إلى مدارك النظرة الشاملة للكون، التى

الإسلام عقيدة علمانية؟

تربط بين جميع الأجناس، وكل الحضارات، وتوجه كل الثقافات في أبادة مصلحة عليا لجميع البشر، يحكمهم قانون واحد أساسه العدالة، وليس أساسه التفرقة العنصرية، وتمييز أجناس على أجناس وطبقات على طبقات بناء على مصالح مؤقتة، ولفتة دون فئة أخرى من البشر.

لقد اعتمدنا على العقل والتأمل والتفكير والنظر في أحوال الكون فوصلنا إلى التوحيد بإجابة مصرية، قيل أن نصل إليه بوحى ورسالة من السماء ثم هبطت الرسالة. توضح الإجابة السابقة، وتصححها وتدعمها وتوجهها الوجهة السليمة لكل البشر.

ومن هنا ارتبطت العقيدة الدينية، بتراث المصرى الحضارى والثقافى على نحو فريد، ليس له مثيل فى أى مجتمع آخر فالمصرى يجد فى أعماق شخصيته، تلك الإجابة الدينية، على امتداد تاريخ الحضارة فى وادى النيل. والتدين عنصر أساسى فى الشخصية المصرية، تلمسه واضحا، حتى بين الذين لا يمارسون العبادات لسبب أو آخر ولا يترددون على المساجد أو الكنائس. نجدهم جميعا فى قرارة أنفسهم يتعاملون بمفاتيح للنفس كلها قائمة على نظرة التوحيد وعقيدة التوحيد.

قكل شىء عند المصرى «بمشيئة الله» و «بإذنه» ورؤيته للكون، وتوقعاته لأحداث سواء على المستوى العام أو الخاص، وتصرفاته ومعاملاته، تحكمها عقلية مؤمنة أى مقتنعة اقتناعا عقليا بوجود الله ووحدانيتها.

الفصل الثالث

والتوحيد ويوم الحساب والآخرة، من معالم الثقافة المصرية التي ربطت بين المسيحيين والمسلمين في مصر، على نحو يختلف عنه في أى مكان آخر من العالم والارتباط بينهم هو ارتباط أهل، لأن المصريين عندما دخلوا الإسلام بعد دخول عمرو ابن العاص مصر، عاشوا - كما يقرر المؤرخون - لأكثر من قرن من الزمان، وبعد أن تحولت غالبيتهم إلى الإسلام، لا يشعرون بأنهم أحدثوا تغييرا خطيرا ومفاجئا في حياتهم، فالتوحيد لم يتغير، وتقديس السيد المسيح والسيدة العذراء قائم، والاضافة التي قدمها الإسلام فيها عدل دنيوى مطلوب بعد أن عاش المصريون المسيحيون مرتبطين بمثل عليا مقدسة، قائمة على أنه لا خير على هذه الأرض، وأن الخير كله والسلام الحقيقي، والنعيم الأبدى في ملكوت السموات.

إن الشعور الذى ساد بين المصريين الذين اسلموا في القرن الاول من الفتح الإسلامى، أنهم يستكملون دينهم بتعاليم جديدة متطورة تهتم بأمور الدنيا إلى جانب أمور الدين، أى أن الإسلام كان بمثابة تطور علمانى في أحد جوانبه لعقيدة المصرى.

ولأنه لمن الغريب حقا، أن تدور مناقشات سياسية، وتثور دعوات ضد العلمانية، دون أن يدرك أصحاب هذه الدعاوى تاريخ العلمانية، أو يحددوا المعنى، ولو كما جاء فى القواميس ودوائر المعارف.

والعلمانية ليست ضد الدين. والعلمانى ليس ضد الدين، بل أن العلمانية تعبير نشأ فى المسيحية، للترقة بين رجل الدين الراهب

الإسلام عقيدة علمانية؟

الذى يلتزم بنظم كنيسة معينة، وأى رجل آخر، حتى لو كان رجل دين، ولكنه لا يعيش حياة رهبنة. فالراهب الذى لا يتزوج ليس علمانيا، أما القس البروتستانتي المتزوج فهو علمانى.

وعندما استخدم تعبير العلمانية فى السياسة، كان المقصود به عدم اخضاع إدارات الدولة لشئون الكنيسة، وكان نقل ملكية أموال وعقارات من الكنيسة إلى مواطنين عاديين، يعتبر تصرفا علمانيا. والذى استخدم تعبير العلمانية فى إنجلترا هو «هوليوك» فى دعوته إلى تحسين سلوكيات الافراد فى المجتمع دون معارضة لتعاليم الدين، أو الوقوف عند هذه التعاليم كما تفرضها الكنيسة. وقد أسس «هوليوك» جمعية علمانية فى لندن تطالب بالتححر من سيطرة الكنيسة وإلغاء مجلس اللوردات.

ولذلك أقول بصراحة إن الذين يورطون الرأى العام فى بلادنا فى مناقشة العلمانية باعتبار أنها أمر ضد الدين، ويطلقون أحكاما حاسمة ومتسعة قائمة على غير أساس، إنما يفتعلون معركة مستوردة من مجتمعات أجنبية، هى التى قامت فيها تلك الصراعات الدينية المخيفة بكل ابعادها السياسية والاجتماعية، والتى لا صلة لها بواقعنا وتراثنا.

ومن ناحية أخرى، إذا كان الدفاع عن العلمانية، يهدف إلى عدم الاعتراف بالدين، فليس هذا خطأ فادحا فى حق الدين فقط، بل هو أيضا خطأ فادح فى حق الشخصية المصرية، وتراثها الحضارى والثقافى.

أما إذا كانت العلمانية، هى الاعتراف بأن الدولة تحتاج إلى

الفصل الثالث

جهود مكثفة تعتمد على نشر العلم، ورفع مستوى الثقافة، والتعرف على الثقافات المعاصرة، ودراساتها، فعندئذ تكون العلمانية ضرورية.

والإسلام هو الدعوة الحقّة للعلمانية، باعتبار أنه يقدم للإنسان الرؤية الروحية والمادية للحياة. والنظرة الدينية الدنيوية للوجود، وهى بمعنى آخر، النظرة الروحية العلمانية، أو الدينية العلمانية.

ولقد بدت تباشير هذه النظرة المزدوجة، فى تبصير بعض القديسين المسيحيين بها قبل ظهور الإسلام، ولم تكن واضحة تماما، ولكنها كانت تدل على أن البشرية فى حاجة إلى نظرة تستكمل وتضيف إلى عقيدتها السماوية الروحية، القدرة على مواجهة تحديات الدنيا المادية، مشاكلها الدنيوية.

وها هو خطاب أرسله القديس جيروم ٣٤٥ م - ٤٢٠ م إلى سيده رومانية اسمها «يوستوكيوم» كانت تقيم فى بيت لحم بفلسطين، حيث أقام القديس حتى نهاية حياته، نجد فى هذا الخطاب، هذه الرؤية التى تبرز بين الدنيا والدين، والحياة والموت، ولقد جاء فى الخطاب ما نصه.

«إن العالم غارق فى الانقراض ومن المخجل أن نقول : إن خطايانا تحيا وتزدهر.. إن روما عاصمة الإمبراطورية، قد ابتلعها حريق هائل وأصبح الرومان منفيين فى كل مكان فى الأرض.. إننا نعيش كما لو كنا سنموت غدا، ومع ذلك فنحن نبني كما لو كنا نعيش أبدا فى هذه الدنيا» !!

ولقد وصف القديس جيروم، حال الدنيا، كمتفرج يرى الواقع

الإسلام عقيدة علمانية

بصدقه ومرارته. وهو لا يطالب بشيء. ويكتفى بوصف ما يراه، فنحن نعيش كأننا نموت غدا. ولقد جاء الإسلام، فحول هذا المعنى واعاد صياغته، ليخرج من حدود الوصف، ويصبح حكمة أو توجيهها - يقال إنه جاء على لسان علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه : «اعمل لأخرك كأنك تموت غدا، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا».

وجمع هذا الأمر بين الدنيا والآخرة، فأعطى للنظرة إلى الدنيا أبعديتها، أو كأنها مستمرة إلى أبد الأبد، لتكون نظرة علمانية. وفي الوقت نفسه لم يتجاهل الأمر، النظرة إلى الآخرة، التي لا تقوم إلا على إيمان واقتناع بالدين.

والذين يريدون أن يحدث اشتباك عدائي، بين الدنيا والآخرة، ويرفضون العلمانية، باعتبارها خروجاً على الدين، يعملون بلا وعى - ولا نتهمهم بغير ذلك - على حرمان إضافة حقيقية ولها أهميتها وخطورتها في العقيدة الدينية جاء بها الإسلام، وهي العلمانية. لأن الإسلام يطلب منا أن نستعين بعقولنا في كل لحظة، والإيمان يزداد وينقص، بقدر ما يحصل عليه العقل من مزيد من المعارف والدراسات في الكون من حوله فيزداد مع كل معرفة جديدة إيماننا بالله، أي أن العلمانية باهتمامها بالحياة الدنيا وكأننا نعيش أبداً، هي أيضاً طريق موصل إلى الإيمان بالله.

والخلط الذي يؤدي إلى أفتعال صراع بين الدين والدنيا. يأخذ اشكالا متعددة، وأسوأ ألوانه ذلك الذي يأتي السينا وأفدا من الخارج.

ومن أهم مصدري هذا الخلط، إسرائيل، التي تشجع كل صراع باسم الدين، ولها منطقتها ومبرراتها، فهي تسعى إلى أن تقوم دويلات الأقليات حولها، ويتفتت العالم العربي والإسلامي، وتنزع منه كل أسباب القوة والمنعة التي قد تشكل خطرا على أمن إسرائيل من وجهة نظرها.

ويأتي الخلط أيضا منذ تورط بلادنا العربية في معارك الحرب الباردة، بين القوتين الأعظم، فحاول البعض أن يربط الدين بتحالفات مع معسكر الغرب الرأسمالي الذي تقوده أمريكا.. وهاجم الكفر والالحاد في المعسكر الشيوعي بزعامة الاتحاد السوفيتي وأقحام الدين أو استغلاله في مثل هذه المعارك، لعبة خطيرة، فتحت الأبواب على مصراعيها لمناورات - باسم الدين - أفسدت ومازالت تفسد رؤيتنا المصرية، التي هي من نوع السهل الممتنع، للتوحيد والعقائد السماوية، في أرض مصر. حيث نعيش في أرض التسامح التي تعتمد على الفهم والعقل السليم، والاجابات الحضارية التي صنعت تراث مصر الثقافي وأصالتها وعبقريتها.

لقد جلب صراع الحرب الباردة عبر أبواب من الانفتاح بلا ضوابط بذور تيارات، هي التي أشعلت الحرب بين إيران والعراق، وهي التي أحترقت بيروت بعد حرب أهلية دامت جيلا بأكملها، وهي التي تهدد جنوب السودان، وتطلق بين حين وآخر أعمال العنف في المغرب العربي، أو في الخليج.

ومسئولية مصر، أن تكون نفسها، وأن تمارس ذاتها، وأن

الإسلام عقيدة علمانية

تعتمد على اصالتها وعبقريتها، وأن ترفع دائما شعاراتها الحقيقية القائمة على الاعتماد على العقل واجاباته، والقائمة على التسامح والنفور من العنف، والتي تعتمد على تعداد مصر الكبير، وهو ليس تعدادا سكانيا، بل هو تعداد عقول قادرة على الفهم، وتعداد أيد لها أصابع ذكية ماهرة، تستطيع أن تعمل وأن تنتج.

أما الاستسلام للتيارات الأجنبية، والانفتاح عليها، فهو ضياع لثقافتنا وتراثنا الحضارى. يتاجر به هواة وضحايا جهل وأطماع وقلة خبرة وقلة حيلة وقلة إيمان.

ومسئولية تصحيح هذه الأخطاء، والتصدي لخطارها، تقع فى المقام الأول، على كل الأحزاب. وهى مسئولية القادة وزعماء الأحزاب، قبل أن تكون مسئولية الأعضاء، وهى مسئولية المرشحين، قبل أن تكون مسئولية الناخبين.

ولنوقف عمليات المتاجرة بالدين، والتهويل والإدعاء والتظاهر باسمه وافتعال المعارك ضد العلمانية مع تصويرها تصويرا غامضا، كسبا لمشاعر الناس وانفعالاتهم.

واعتقد أن المصريين قد تنبهوا إلى هذه المتاجرة بالمعارك المستوردة لسبب أو آخر، ولم تعد الصيحات المتشنجة، تثيرهم ، كما كان يحدث ذلك فى الماضى .

الفصل الرابع

صراع قوميات ..

لا أديسان

كان اسمه «سويتشا» يوغوسلافي يعمل في مشروع للأمم المتحدة لتأمين المطارات الدولية ضد عمليات الإرهاب. وكان يأتي إلى القاهرة بين وقت وآخر، وتقابلنا في نادى الجزيرة أمام رقعة شطرنج. ذات يوم دار بيننا حديث عن السياسة وعدم

الانحياز والمذاهب والأيديولوجيات - فاجأني بقوله :

المسلمون عندنا يمثلون قومية إنهم ليسوا كالمسلمين عندكم!

قلت له فى غير فهم :

كيف ؟! الإسلام عقيدة، ديانة لجميع البشر فى كل مكان وكل جنس أو قومية.

قال فى هدوء :

- إنهم عندنا قومية من بين القوميات، فأنت لست منهم.

أنت مصرى قوميتك مصرية. وهم فى يوغوسلافيا قوميتهم مسلمون !

نبهنى هذا الحديث إلى الخلط الذى يقع فيه المثقفون على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم فى الغرب.

فى أوروبا وأمريكا، يخلطون بين الإسلام والجغرافية، يعتقدون مقارنة بين مجتمع إسلامى ومجتمع أوروبى، يخلطون بين الإسلام والمذاهب السياسية، فيتحدثون عن الفروق بين الشيوعية والإسلام. أو الرأسمالية والإسلام. يخلطون بين الإسلام والأجناس، حتى أصبحت كلمة تركى ترادف كلمة مسلم فى كل أدب القصص والروايات التى كتبها الأوروبيون فى القرن التاسع عشر. يخلطون بين الإسلام ولون البشرة، فالمسلم زنجى فى نظر البعض، والأدهى من ذلك، يخلطون بين الإسلام وأنواع السلوك التى تتسم بالعنف والقسوة !

إنها رؤية جاهلة للإسلام، وهى أحياناً رؤية متعمدة لمحاصرة الإسلام فى أماكن محددة وبيئات خاصة وأوساط بذاتها لا يخرج عنها المستشرق برنارد لويس يتحدث عن عقيدة الإسلام والمسلمين فيتحدث فى الوقت نفسه تحت عنوان «أراضى وشعوب الإسلام» وعلى الفور يسود عند القارئ انطباع بأن الإسلام له «أراضى» محددة، وتدخل الإسلام شعوب محددة! ليس هناك من يتعامل مع الإسلام على أنه دين لجميع البشر قام على التسامح والجدل بالتي هى أحسن بين جميع البشر، الإسلام فى رأيهم شرقى لا صلة له بالغرب!

صراع قوميات .. لا أديان

صراع قوميات وصراع دين ؟

فى إطار هذا المفهوم عن الإسلام، نسمع منذ شهور الأحداث الدامية التى اجتاحت يوغوسلافيا، سمعنا أول الأمر عن الحرب فى كرواتيا ودامت عدة شهور. وكانت المعارك بين الصرب والكروات. ولم تتحدث وكالات الأنباء عن الصراع الدامى بين «الصرب» وهم مسيحيون أرثوذكس ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وبين «الكروات» وهم مسيحيون كاثوليك ينتمون إلى الفاتيكان والبابا فى روما. فلما امتد الصراع إلى «البوسنة والهرسك» حيث يوجد مواطنون مسلمون، إذا «بالمسلمين» يعتلون مسرح الأحداث الدامية !! يتعاملون معهم «هناك» على أنه صراع بين قوميات. ونحن نتعامل معهم «هنا» بعقولنا ومشاعرنا على أنه صراع مع الدين. وكان من المثير حقا. أن نسمع عن معارك تخوضها الميليشيات الصربية ضد «المسلمين» وضد «الكروات» : لماذا لا يقولون ضد المسلمين والكاثوليك. إنهم مصممون على محاصرة الدين الإسلامى داخل قومية أو أرض جغرافية أو جنس معين له لون بشرة خاصة به !

لا يعنى هذا التخفيف من وقع الجرائم البشعة. إن ما حدث لابد أن يكون له حساب ورد فعل مدروس، ولكن الجرائم ليست مقصورة على المسلمين، والتعقيدات التى تصاحبها تحتاج إلى مراجعة وتأمل لطبيعة الأحداث وتاريخها وسياقها.

الطيور السوداء

لقد انهارت يوغوسلافيا، كانت تمثل اتحادا لست جمهوريات :

جمهورية صربيا، جمهورية الجبل الأسود «مونتيجرو» جمهورية «كرواتيا»، جمهورية «سلوفينيا»، جمهورية «البوسنة والهرسك»، جمهورية «مقدونيا». هذه الجمهوريات كانت محل صراع دموى فيما بينها يعود إلى القرن التاسع الميلادى وربما قبله. وكان صراعا بين مسيحيين ومسيحيين واشترك فيه أصحاب مذهب لا يؤمن بالتوحيد حاربوا المسيحيين، وكان اسمهم «البوجوميل» و «بوجو» فى اللغة الصربية معناها القوة العظمى. وكانت عندهم قوة ثنائية. هى قوة الخير والشر. وكانت طبيعة البلاد الجبلية والغابات من العوامل التى جعلت طباع البشر خشنة وفظة.

جاء الصرب إلى هذه المنطقة قادمين من الشرق من «أوكرانيا» من مقاطعة «جاليسيا» وكانت خاضعة لبولندة فى القرن الرابع عشر وللنمسا فى القرن الثامن عشر. هاجر الصرب إلى جزيرة البلقان خلال القرنين السادس والسابع. واعتنقوا المسيحية فى القرن التاسع. وكانوا تابعين للإمبراطورية البيزنطية، حتى أعلنوا استقلالهم تحت حكم ملك اسمه «دوشان» وكان ذلك فى القرن الرابع عشر. ولكن الاستقلال لم يدم، وسرعان ما انهارت أحلام «دوشان» فقد حان الوقت للعثمانيين لأن يجتاحوا المنطقة. ودارت معركة فاصلة فى «قوصوة» عام ١٣٨٩ وترجمة «قوصوة» أو «كوسوفوبولى» هى «حقل الطيور السوداء». ولهذه المناسبة نسمع اليوم فى برامج الأخبار والتلفزيون اسم «كوسوفو» ولا أحد يدرك أنه يستمع إلى اسم تاريخى يرمز إلى معركة حاسمة فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب. وإن كانت هذه المعركة بالذات تركت ذكرى لم تمحها القرون والأجيال حتى

صراع قوميات .. لا أديان

أصبح يوم المعركة الموافق ليوم ٢٨ يونيو من الأيام التي يحتفل بها الإرمانيون في الصرب.

إن تاريخ العثمانيين له أيام كثيرة منذ حصل «عثمان بن أرطوغرول» من السلطان السلجوقي علاء الدين على الإذن بأن يتولى السلطة في الأراضي التي يغزوها من دولة الروم «بيزنطة» ومات عثمان عام ١٣٢٥، وما هو ابنه «أورخان» يواصل غزوات أبيه في الاستيلاء على أملاك بيزنطة. فيجتاح «الصرب» التي ما كادت تحصل على استقلالها ! ولكن المقاومة الصربية لم تستسلم فظلت «بلجراد» عاصمتهم في حماية المجر حتى استولى عليها العثمانيون في عام ١٥٢١ وتحولت الصرب إلى ولاية تركيا.

مقاومة وحروب

عندما بدأت علامات الضعف والهزال تنتاب الامبراطورية العثمانية أصبحت «رجل أوروبا المريض» في القرن الثامن عشر. وتكاثر المطالبون باقتسام التركة. وهكذا انبعثت المقاومة الصربية من جديد بقيادة رجل اسمه «ميلش أوبرنفتش» عام ١٨١٧ وقد ساعدته روسيا فاضطر السلطان إلى عقد معاهدة يعترف فيها بصربيا كإمارة خاصة ولكنه ظل محتفظا بالسيطرة الشكيلة.

قلما جاء عام ١٨٦٧ انسحبت القوات التركية من صربيا. وفي الوقت نفسه قامت ثورة في الولاية التركية المجاورة «البوسنة والهرسك» فساعدتها أمير الصرب «ميلان» وتطور الأمر

فأعلن الحرب على تركيا عام ١٨٧٨، وانعقد مؤتمر برلين واعترف باستقلال الصرب، وفي عام ١٨٨٢ وهو العام الذي احتل فيه الانجليز مصر الولاية العثمانية. كان الأمير «ميلان» ينصب نفسه ملكا على صربيا المستقلة، وتفتتح شهيته للغزو فأعلن الحرب على بلغاريا عام ١٨٨٥. وتحولت الصرب إلى دولة شرسة تحارب لتتوسع في البلقان تريد الاستيلاء على البوسنة والهرسك وتريد استقطاع أجزاء من مقدونيا من بلغاريا. وخاضت حرب البلقان عام ١٩١٢ - ١٩١٣ لتصبح الدولة السلافية الأولى. وزادت اطماعها في الاستيلاء على البوسنة والهرسك وتقع بين كرواتيا والجبل الأسود يحدها شمالا نهر «السافا» وعاصمتها سيرايفو وعندما دخلها الأتراك كانت الصراعات الدينية المسيحية على أشدها بين الكاثوليك والأرثوذكس. وكان البوجوميليون أصحاب عقيدة الخير والشر يحاربون جميع المسيحيين فلما دخل الأتراك انقضوا على هؤلاء «البوجوميليين» باعتبارهم لا يدينون بديانة التوحيد فأبادوهم تقريبا. وكان الصراع الديني قد أنهك الفلاحين فاستراح كثيرون إلى دخول دين الإسلام وساعدهم على ذلك أن الطبقة الأرستقراطية بينهم اختارت الإسلام حفاظا على مصالحها، ولترتبط بقوة الباب العالي الذي يمثل القوة العظمى في العالم. وكانت «البوسنة والهرسك» في خوف مستمر من «صربيا» وقد استولت عليهم بمجرد أن أعلن ملكهم «دوشان» استقلاله عن بيزنطة، وقبل أن يغزوه العثمانيون، ثم يخلصون أهل البوسنة والهرسك من الطغيان الصربي.

بوتقة للأديان والصراع

والمسلمون لهم تجمع كبير فى «سيراييفو» ونسبة المسلمين إلى بقية اليوغوسلافيين فى الجمهوريات الست يبلغ حوالى ١٣ فى المائة ويوجد بسيراييفو مقر إحدى هيئتين إسلاميتين فى يوغسلافيا المعروفة باسم «علما مجلس» والمقر الإسلامى الثانى بمدينة «أسكوبيا» عاصمة مقدونيا، ومعظم أراضى البوسنة فى جبال الألب الدينارية، وهى مثل كرواتيا ومونتيجرو أغلبها جبال وغابات. والكرواتيون كاثوليك. أما سكان مونتيجرو الجبليون فهم من المتعصبين للأرثوذكسية ولقد استطاعوا مقاومة العثمانيين خمسة قرون كاملة واعتمدوا على وعورة الجبال وصعوبة المواصلات وكثافة الغابات. وكان يحكمهم أساقفة يتوارثون الحكم ولما كان الأسقف لا يتزوج ولا ينجب ورثة. فكان الذى يرث الحكم ابن أخ الأسقف. وكانت مونتيجرو الملجأ الذى تأوى إليه أرستقراطية الصرب إذا ما طاردهم الأتراك. وذلك على عكس أرستقراطية البوسنة والهرسك الذين فضلوا دخول الإسلام.

أما الكروات فقد اعتنقوا مثل الصرب المسيحية فى القرن التاسع واختاروا الكاثوليكية، واستولى عليهم الملك «لادسلاس الأول» ملك المجر عام ١٠٩١. وفتح الأتراك بلادهم ١٥٣٦م. وكان الأتراك قد دخلوا النمسا منذ عام ١٥٢٩م، ووصلوا إلى أبواب فيينا. وكان البابا يحارب فى جبهتين فى وقت واحد يصدر البيانات لتكذيب تعاليم «مارتن لوثر» البروتستانتية التى احتج فيها على الكنيسة الكاثوليكية. وفى الوقت نفسه يحشد القوى ضد هجوم الأتراك المسلمين.

لقد تحولت جمهوريات البلقان إلى بوتقة اختلطت فيها الأديان والأجناس في أرض شديدة الوعورة، الحياة فيها جبلية قاسية. هذا الخليط ضم بلغاريا ويونانيين وغجرا ويهودا وأرناؤوطا، والمسيحيون اختلفوا بين أرثوذكس وكاثوليك ثم أضيف إليهم البروتستانت بعد ظهور تعاليم مارتن لوثر الذي بدأ حملته ضد بابا روما منذ عام ١٥١٧. هذا بالإضافة إلى «البوجوميليين» وزاد عليهم أخيرا الأتراك المسلمون. والصراعات على كثرتها تؤكد أنها كانت حول أطماع سياسية تتخذ من الدين - أى دين - مبررا لحشد الناس تحت لواء هذا الأمير أو ذاك. لتحقيق هذا المطمع أو ذاك. وكان أبرز الصراعات في مقدونيا بين اليونان وبلغاريا وصربيا وهى مازالت حتى يومنا هذا مقسمة بينهم. وتعرض اليونان بشدة على إعلان جمهورية مقدونيا المستقلة، وكذلك بلغاريا.

الييد السوداء

نعود إلى الصرب التى كانت تطمع فى حرب البلقان أن تسيطر على البلقان بأكمله، وتطمع فى الاستيلاء على البوسنة والهرسك التى كانت تخضع للإدارة النمساوية وإن احتفظت تركيا بسلطانها الشكلى عليها، على نحو ما كانت تحتفظ بالسلطة على مصر رغم احتلال الإنجليز.

منذ بداية القرن العشرين اجتمع ضباط فى الجيش الصربى وقرروا إنشاء جماعة «الييد السوداء» وهى جماعة إرهابية تحقق الأهداف الوطنية الصربية باستخدام جميع الوسائل المشروعة

صراع قوميات .. لا اديان

وغير المشروعة. وكان أول أعمالها الكبرى اغتيال الملك الكسندر والملكة دراجا فى بلجراد عام ١٩٠٣ بأن مزقوا جسديهما إربا. كان لهذه العصابة تنظيم حديدى استطاع أن يجذب إليه «الكسندر» ولى العهد وباشيتش رئيس الوزراء. وقائد الجيش. وكان الكولونيل ديمترييفتش رئيس المخابرات يتولى تنظيم وتخطيط عمليات الإرهاب. وكان عليه أن يساهم فى مشروع استخلاص «البوسنة والهرسك» من السيادة الشكسية التركية والسيادة الفعلية والإدارية النمساوية. وبهدوء وبرود شديدين وافق ساسة الصرب على انتهاز فرصة زيارة الارشيدوق «فراز فرديناند» ولى عهد النمسا ومعه زوجته الارشيدوقة «صوفيا» لسيرايفو، لتدبير مصرع الارشيدوق. واختار الكولونيل ديمترييفتش يوم ٢٨ يونيو - أثناء الزيارة - لارتكاب الجريمة. لماذا ؟ لأنه يوم ذكرى معركة «كوسوفو بولى» المعركة التى خسرت فيها الصرب استقلالها فى ساحة الطيور السوداء أمام قوات «أدرخان» العثمانى منذ ستة قرون !

إنه ثار مبيت ضد العثمانيين يحققه التعصب الصربى ضد النمساويين! وهذا يؤكد لنا أن عامل الدين ليس أكثر من أداة للتهييج وحشد أدوات القتال. وكانت أدوات عصابة اليد السوداء صبية لم يبلغوا بعد سن الرشد قام الكولونيل بالاشراف على تدريبهم على التصويب بمسدسات من طراز بروننج وقنابل يدوية. ومنحهم مصاريف انتقال وبدل سفر وزودهم بأقراص «سيانور» للانتحار إذا ما قبضوا عليهم. كانوا عشرين صبيا طلبة فى المدارس عبروا من مقدونيا إلى البوسنة وانتظموا فى سبعة

كمائن في سيرايفو وكانت المحاولة الأولى بالقاء قنبلة في طريق الركب الملكي إلى دار البلدية فأنفجرت قنبلة وخدشت اثنين من حاشية ولي العهد ثم نجحت المحاولة الثانية عصر يوم ٢٨ يونيو بأن أطلق الطالب «برينزيب» طلقتين وهو واقف في شارع «فرايز جوزيف» على بعد ثلاث ياردات من مركب الارشيدوق وزوجته، اخترقت الرصاصة الأولى شريان رقبة ولي العهد واخترقت الرصاصة الثانية أمعاء الارشيدوقة وماتا بعد قليل، أما «برينزيب» فمات في السجن. وبلغ التعصب بالصربيين أنهم أقاموا له تمثالا كبطل وطني !

إرهاب استاشي

التاريخ على مدى قرون بعد قرون من الصراعات الدموية والفتن الطائفية والإرهاب الدموي. توقف لفترة قصيرة بعد سقوط الصرب في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥ وانسحاب حكومتها وقيادة جيشها إلى جزيرة «كورفو» التابعة إلى اليونان اليوم. وأقيم عام ١٩١٧ مؤتمر للشعوب السلافية أقام اتحادا يضم الجميع الصرب وكرواتيا وسلوفينيا والجبل الأسود تحت راية الملك بطرس ملك صربيا الذي أصبح ملكا ليوغوسلافيا ١٩١٨.

لكن الاضطرابات والإرهاب السري لم ينته إذ لم يحتمل الكروات الكاثوليك الاندماج مع الصرب الأرثوذكس. ليس بسبب الدين بقدر شعور كرواتيا بأنها أقرب إلى غرب أوروبا ولديها ثروة من المعادن مثل: المنجنيز والبوكسيت وغيرهما وزادت حدة

صراع قوميات .. لا أديان

الاضطرابات عام ١٩٢٨ بمقتل ستيفان راديش الزعيم الكرواتي. واضطر الملك الكسندر إلى إقامة ديكتاتورية تحكم البلاد بالحديد والنار. فأقام الكرواتيون منظمة إرهابية اسمها «الاستاشي» على غرار منظمة اليد السوداء الصربية واغتالت الاستاشي ملك يوغوسلافيا «الكسندر» عام ١٩٣٩ وأعلنوا الحكم الذاتي، وما كاد الألمان يغزون يوغوسلافيا عام ١٩٤١ حتى أعلن الكرواتيون استقلالهم وأقاموا نظاما فاشيا. حسب الموضحة السياسية لذلك العصر. فكان الديكتاتور «انتي بافليش» هو حاكم كرواتيا واختاروا دوق سوليتو أحد أمراء الأسرة المالكة الإيطالية ليكون ملكا على كرواتيا تحت سيطرة الدوتشي الإيطالي بنيتو موسوليني. وفي عام ١٩٤١ أعلن الديكتاتور الكرواتي الحرب على الولايات المتحدة ! ثم قرر أن هتلر أقوى من موسوليني. فعزل الملك الإيطالي من عرش كرواتيا وانضم إلى ألمانيا وهناك ميل نحو الألمان مازال يراود الكرواتيين حتى يومنا هذا.

صندوق باندورا

وفي عام ١٩٤٦ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سقطت جميع الديكتاتوريات الفاشية في أوروبا مع سقوط موسوليني وهتلر. وقامت يوغوسلافيا جديدة بزعامة تيتو تتبنى الشيوعية. وحدث استثناس للصراعات بين هذه الجمهوريات تحت النظام الشيوعي الصارم، فلما تفكك الاتحاد اليوغوسلافي، انكشف الغطاء عن صندوق «باندورا» فانطلقت مرة أخرى جميع الشرور والأطماع والشهوات الإقليمية والطائفية والعرقية.

الفصل الرابع

طبيعي أن تغضب للعدوان على المسلمين ولكننا نغضب أيضا - كمسلمين - للعدوان على كل إنسان سواء كان مسلما أو غير مسلم، وطبيعي أن ندافع عن الإسلام. ولكن الدفاع عن الإسلام يعنى الدفاع عن العدل، يعنى رؤية الواقع بأبعاده الحقيقية يعنى عدم التورط فى معارك قبل أن نعرف أغراضها وأهدافها الحقيقية، والجهل بالحقائق يؤدى إلى أخطار لا حصر لها.

من بين هذه الأخطار على سبيل المثال لا الحصر.. مواجهة ما يحدث بحملات مضادة وإقامة حروب دينية.. وهذه حماقة ليس بعدها حماقة، لأن الأحداث فى جوهرها ليست صراع دين ضد دين أو عقيدة ضد عقيدة. والذين يحاربون على استعداد للهجوم على أى دين فى أى وقت لأن هدفهم ليس الدين وإنما هو الأرض والسيطرة عليها.

ومن بين الأخطار أن هناك قوى على استعداد لاستغلال صراع دينى بين المسلمين و «أوروبا» لأن هذا يهيئ المناخ ويعد الرأى العام فى أوروبا وأمريكا لتحقيق مآرب فى القدس تنتهى بالاعتداء على المقدسات الدينية الإسلامية هناك فى إطار صراع دينى شامل بين الإسلام والأديان الأخرى.

ومن بين الأخطار أن النزعات الفاشية والعنصرية التى تعود إلى أوروبا سوف تجد فى الصراع مع «المسلمين» صراعا مع قومية أو مع جنس ملون أو شعوب متخلفة وتستخدم المسلمين وقودا لتغذية التعطش العنصرى للعنف وسفك الدماء، واتخاذ العرب أو المسلمين ضحايا محل معاداة اليهودية التى اعتاد عليها

صراع قوميات .. لأديان

الأوروبيون فى القرون السابقة فيتحول العداء للسامية من عداء لليهود إلى عداء للمسلمين أو العرب.

نخطيء إذ نتورط فى هذا الكمين الذى تساعد عليه هذه النظرة الخاطئة للإسلام على أنه قومية وليس عقيدة.. وعلمنا أن نذكر أوروبا برؤيتها الحقيقية للإسلام من خلال كبار مفكرىها وفلاسفتها العظام.

شهادة هيجل وروسو

ولكن قبل أن نذكر أوروبا برؤية كبار مفكرىها للإسلام علينا أن نسجل فى الوقت نفسه بكل أمانة أن هناك نظريتين للإسلام فى تاريخ أوروبا فيهما تناقض لأبد من مواجهتهما.

أولاهما : نظرة ردها رجال دين اتهموا المسلمين بالعنف والقسوة ثم ربطوا بين الإسلام ومذابح الدم، وثانيتهما: نظرة شعبية أوروبية كانت تتباهى فيما يشبه أشعار أبو زيد الهلالي. بالمذابح التى ارتكبها الأوروبيون بالمسلمين، وقصص مثل حكايات عنقرة بن شداد تشجع الجنود على الاحتشاد للانخراط فى الحملات الصليبية. وكان إلى جوار هذا - أيضا - بعض المفكرين مثل مونتسكيو هاجموا الشرق عموما بالاستبداد وربطوا بين الإسلام والشرق وكأنه دين محدود بالشرق ولا يستطيع الانتقال إلى الغرب.

لكن كبار مفكرى وفلاسفة أوروبا قالوا كلمة حق وصدق فى الإسلام. أولهم هيجل أستاذ العلوم السياسية الأوروبية. سواء كانت ماركسية يسارية أو مثالية رأسمالية. قال فى كتابه دروس

فى التاريخ ومن ترجمة لطفى السيد «العالم قبل الإسلام كان يعانى من الابتذال والسفه، كان البشر يواجهون اصنافا من القهر والعسف، فلما جاء الإسلام قامت فى الشرق ثورة حطمت قيود العبودية وخلصت الإنسان من التبعية والتدنى إلى مستويات وضيعة، وارتفعت بروح الإنسان تعلو بها من الأرض محلقة فى سماء تجمع البشر جميعا حول «الواحد» المطلق، الحق الذى تعود إليه كل حقيقة».

ما أعظم هذه الكلمات عن الإسلام. ومثلها قالها أكبر فلاسفة الحرية وتحرير العقل الإنسانى فى تاريخ أوروبا الحديثة. وهو «جان جاك روسو» الذى قال : شريعة الإسلام يؤمن بها نصف العالم منذ عشرة قرون. كشفت عن عظمتها، بينما التعصب الأعمى لا يرى فيها شيئا، ولكن السياسى الحقيقى يجد فى شريعة الإسلام قوة هائلة ومملكة قادرة لا توجد إلا فى الشرائع الخالدة. كذلك فولتير أحد آباء الثورة الفرنسية الكبار رفض ما قاله «مونتسكيو».

إن العقل الأوروبى الناضج يعرف حقيقة الإسلام والعيب ليس فى الإسلام إنما العيب فى تخلف مسلمين لا يدركون مسئولية العقيدة التى ينتمون إليها فيتورطون فيما يتورط فيه من حرموا من العقيدة الصحيحة وكفروا بنعمة العقل الذى نهتدى به فى إيماننا بالإسلام.

الفصل الخامس

ملاحظات حول

اللقاء الإسلامي

الكاثوليكي

نشطت الكنيسة الكاثوليكية فى السنوات الأخيرة،
وساهمت بقسط كبير فى الصراع السياسى بين
الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية.
وذلك بسبب السياسة التى ينتهجها البابا يوحنا
بولس الثانى، البولندى المولد، فى الفاتيكان اليوم
وهو لا يشارك فى الصراع السياسى فحسب بل يعمل على
استثارة اليقظة الدينية التى أصبحت ظاهرة عالمية، سواء فى
الشرق الإسلامى أو المسيحى. هذا فضلا عن حالة التعصب
والتطرف الدينى الصهيونى اليهودى.

لاهوت وناسوت

وحتى نتفهم الأسس التى يتحرك معتمدا عليها بابا الفاتيكان،
علينا أن نلم بنبذة مختصرة عن الكاثوليكية. فهى تؤمن بأن السيد
المسيح له طبيعة مزدوجة. طبيعة إلهية «لاهوت» وطبيعة إنسانية

الفصل الخامس

«ناسوت» فالمسيح عليه السلام في نظرهم كان إنساناً في تصرفاته العادية مثل كل البشر، يأكل ويشرب وينام ويمشي على قدمين ويمارس كل ألوان النشاط الإنساني كإنسان وليس كإله.. أما معجزات السيد المسيح كإحياء الميت وشفاء الأبرص وغير ذلك مما رددته الأناجيل فذلك يصدر عن الطبيعة الإلهية المنفصلة عن الطبيعة الإنسانية. أي أن المسيح في اعتقاد الكاثوليك له طبيعة مزدوجة.

وهذا التصور الكاثوليكي مرفوض تماماً من المسيحيين الأرثوذكس وبالذات من أقباط مصر الذين لا يؤمنون بهذا الازدواج في شخص السيد المسيح، ويرون أنه من طبيعة واحدة، وأن «اللاهوت» «والناسوت» مندمجان لا انفصام بينهما.

اليوم وغدا

ومن هنا كان المسيحيون الأرثوذكس الشرقيون، يركزون في عقيدتهم وممارستهم لتعاليمها على السعى في طريق الرب، والخلاص من الحياة الدنيا حياة الخطيئة أما الكاثوليك فهم يرون أن السيد المسيح كان في بعض طبيعته إنساناً، ولذلك قلل الإنسان أهميته، وللعمل الدنيوي الذي يقوم به الإنسان أهميته. وأن من الواجب التركيز على الجانب الدنيوي مثل التركيز على الجانب الإلهي. ولقد كان القديس أمبروز هو أول من قال في القرن الرابع الميلادي وقبل ظهور الإسلام: «إننا نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً ونعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً» وهي حكمة ردها المسلمون فيما بعد.

ملاحظات حول اللقاء الإسلامي المسيحي الكاثوليكي

ولأن الكاثوليك يعملون للعالم، تراهم يهتمون ببناء المدارس، والمستشفيات والملاجئ والمكتبات ومعاهد الثقافة والأبحاث في الآثار وغير ذلك من المجالات الاجتماعية والتاريخية أو ما نسميه بالإنسانيات.

هقسس ثوار

ومع تطور المذاهب السياسية والفكرية في العصر الحديث، طورت الكاثوليكية نشاطها الإنساني، فكان لها فلاسفة ورجال فكر، وتدخلت في الوقت نفسه في الجدل السياسي سواء كان ذلك على المستوى النظري أو العملي.

ومن الأمثلة البارزة على النشاط السياسي العملي لرجال الدين الكاثوليك تحت قيادة البابا ورأسه الدينية دور الكنيسة الكاثوليكية في بولندا، في تحريك الأحداث السياسية وتشجيع نقابة التضامن على معارضة الحزب الشيوعي والنظام الشيوعي الحاكم.

وكذلك برز نموذج جديد لرجال الدين الكاثوليك، في أمريكا الجنوبية، يشتركون مع الثوار، ويدعون إلى الثورة الدينية التي تطالب بمطالب اجتماعية لصالح الطبقات الفقيرة المطحونة بقوى الامبريالية والشركات العالمية. ومن المشاهد المألوفة بين الثوار في أمريكا الجنوبية، القس الكاثوليكي الثائر.

الإسلام والوثنية في إفريقيا

وبالمثل امتد نشاط الفاتيكان إلى إفريقيا فكانت زيارة البابا الأخيرة لإفريقيا، حيث فتح أبواب اللقاء مع المسلمين في تحرك

دينى لا يخلو من شبهة سياسية .

والتنافس بين الدين الإسلامى والدين المسيحى، قائم فى إفريقيا. وهو تنافس شريف. وما زال التفوق فيه للإسلام. فالذين يدخلون الإسلام من بين الوثنيين الإفريقيين أكثر بنسبة كبيرة من الذين يدخلون الكنيسة الكاثوليكية.

والسبب فى انتشار الإسلام، هو أن الإفريقى الذى يريد أن يتخلص من أية قيود قبلية تقيده، خاصة قيود الولاء لآلهة القبيلة التى تحاصره بعادات معينة ورؤية محدودة الأفق للعالم، مثل هذا الإفريقى الوثنى يكتشف فى الإسلام حرية تامة، تفتح له كل الأبواب على مصراعيها ليتصل مباشرة بربه، يعبدّه ويناجيه بلا وساطة ولا قيد، وإذا احتار فى أمر تعاليم دينه فليس المطلوب منه أكثر من أن يستفتى قلبه باعتبار أن الإسلام هو دين الفطرة السليمة وأن الإنسان - بإجماع علماء المسلمين - يولد مسلماً بفطرته، وحتى إذا لم تبلغه الرسالة المحمدية، ولكنه لم ينكر الله ولم يكفر به أو يقطع بعدم وجوده، بل ظل بفطرته يتساءل عن سر الكون، فهو إذا مات على هذه الحال، يموت مسلماً. لأنه مات بفطرته.

هذا بينما المسيحى، لا يكون مسيحياً، ولا تقبله السماء إلا عن طريق بيت الرب، وهو الكنيسة، التى تقوم برجالها كمؤسسة وسيطة بين الإنسان وربه، فالمسيحى لا ترضى عنه السماء، إلا إذا رضيت عنه الكنيسة وقبلته كواحد من خرافها التى ترعاها.

وابن الغاب الإفريقى، يميل إلى حرية الإسلام، وتحرره من

ملاحظات حول اللقاء الإسلامي المسيحي الكاثوليكي

قيود الوساطة، وعلاقته المباشرة البسيطة بالرب. وهو يقبل هذه البساطة أكثر من قبوله لطقوس الكنيسة ومراسمها.

ولكن الكاثوليكية تقترب من الأفريقي عن طريق الخدمات الإنسانية التي تقدمها له. فإذا كان الإسلام يطلق للأفريقي البدائي حريته، ويقدم له رؤية للعالم متسعة الأفق فالكاثوليكية من ناحية أخرى تربط الأفريقي بالكنيسة مقابل رعايته بالخدمات الثقافية والتربوية، والمدارس والمستشفيات، والمراكز التي تتولى تطعيم الناس ضد الأوبئة، وتعرض عليهم الأفلام السينمائية، وتقدم الخدمات العلاجية والتمريضية للمحتاجين إليها بالمجان.

زواج المسلم والمسيحية

ولقد سعى البابا بولس إلى التفاهم مع الإسلام، خلال زيارته لإفريقيا، خاصة في تلك الزيارة التاريخية التي قام بها للملك الحسن، وخطب في المسلمين الذين قابله بترحاب كبير.

ولقد سبق أن قام البابا السابق «بيوس» بخطوات في نفس الطريق، وهو التفاهم مع الأديان الأخرى في مواجهة الإلحاد، حتى أنه سمح للكنيسة الكاثوليكية بأن تقبل - مثلاً - عقد زواج مسلم بمسيحية كاثوليكية، هذا بينما الكنيسة الأرثوذكسية لا تقبل عقد مثل هذا الزواج.

والتفسير الذي تقدمه الكنيسة الكاثوليكية لمبادراتها للتفاهم والتعامل مع الأديان الأخرى خاصة الإسلام، هو أنها تسعى إلى تحقيق هدفين : أولهما: أن تفتح المجال أمام الكاثوليكية لتتعرف عليها المجتمعات ذات الحضارات والعقائد المغايرة، وثانيهما : أن

تسعى إلى التفاعل مع النواحي الإيجابية فى العقائد الأخرى مع تجاهل ما ترى أنه عوامل سلبية، وتغض النظر عنها فى سبيل تحقيق هذا التفاهم.

زوجات بالعشرات

ومن الطبيعى أن يكون من أهم ما واجهه القسس الكاثوليك فى إفريقيا خاصة فى مجتمعاتها البدائية. قضية تعدد الزوجات فالإفريقى قد يتزوج عشرات. ولا يعتبر ذلك خروجاً عن المألوف، بل إن من مظاهر الهيبة والرياسة فى القبيلة أن تكون له زوجات بالعشرات.

والإسلام وضع حدوداً لمثل هذه الزيجات وتوقف بها عند أربع. والآن تحاول الكنيسة الكاثوليكية فى استراتيجيتها الجديدة للتعامل والتفاهم مع الحضارات والعقائد الأخرى أن تتغاضى عن مسألة تعدد الزوجات فى سبيل تعريف الإفريقى البدائى بالكاثوليكية، ومحاولة اقناعه بالانضمام إلى الكنيسة. لأن مثل هذا الإفريقى لن يفهم كيف يحرمه الدين - أى دين - من حقه فى الزوجات.

وهذه واحدة من المشاكل التى تواجهها ارساليات التبشير الكاثوليكية فى إفريقيا.

وعلى أية حال. أثارت رحلة البابا انتقادات اتخذت اتجاهين متعارضين :

اتجاه، هاجم الزيارة بشدة، باعتبار أن البابا يقود حملة

ملاحظات حول اللقاء الإسلامى المسيحى الكاثوليكى

للانتصار للرجعية والامبريالية، ولحشد وتجنيد الجماهير باسم الدين ضد الشيوعية. وهو يعقد تحالفا سياسيا لا دينيا مع الإسلام ليورط المجتمعات الإسلامية، وأغلبها دول تتبنى مواقف عدم الانحياز، فى صراع ليس من مصلحة الأفارقة ولا المسلمين الدخول فيه.

والبابا بولس، البولندى المولد، يواصل بذلك عملية تاليب الرأى العام وهو يقوم بنشاطه السياسى لإحباط ثورات الشعوب، ضد الامبريالية. وتحويل طاقات الثوار إلى اتجاهات أخرى باسم الدين، لتفقد الثورة فاعليتها ضد القوى المستغلة التى تضطهد البشر.

أما النقد الثانى، فيأتى من جانب جماعات إسلامية متطرفة، ترى أن البابا يريد استثمار اليقظة الدينية التى تعم عالم اليوم لمصلحة التبشير للكاتوليكية، وأنه يريد أن يكون له نفوذه، عن طريق الاتصال بالمجتمعات الإسلامية، والتفاهم معها وعقد صلات الصداقة معها، حتى تتاح الفرصة كاملة للإرساليات الكاثوليكية لتؤدى رسالتها.

ولست ممن يعارضون قيام صلات بين الفاتيكان والمسلمين، فلا معنى - سياسيا - لرفض التفاهم بل التعاون، حتى لا تنفرد الصهيونية بإقامة العلاقات مع الفاتيكان.

أما من الناحية الدينية، فنحن كمسلمين علينا أن نحترم أصحاب الديانات السماوية وأهل الكتاب، وأن نكون شهداء عليهم، ونتعامل معهم بالقسط، أى بالعدل.

وعلينا قبل إن نوجه الاتهامات، أن نراجع أنفسنا ألف مرة،
ونقول إن بعض الظن إثم.

ولكن بعد ذلك، علينا ألا نتورط باسم الدين، في مواقف
سياسية لا شأن لنا بها، فالعلاقات الحميدة بين الأديان، نقول لها
أهلاً وسهلاً، أما خلط التفاهم بين الأديان، بالمواقف السياسية
التي تخدم القوى السياسية، فهذا نقول عنه إنه لعب بالنار.

الفصل السادس

ملاحظات حول

مؤتمر القمة

الإسلامي

لا يعرف الإسلام هذا الصراع بين الشرق والغرب، أو هو لا يعترف به، ذلك لأنه جاء في الذكر الحكيم: ﴿والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾.

هذا المفهوم الإسلامى لا يقابله رؤية مماثلة من الآخرين. وكما قال ذات مرة، أحد المستشرقين، كان الذى يعيش فى الغرب فى العصور الوسطى، يتصور المسلم تحت وطأة دعاية مضادة، مثل تلك التى يتصور بها من يعيش فى الغرب اليوم البلاشفة. ولقد كانت القصص التى يرونها فى الغرب عن العرب فى العصور الوسطى، تصور العربى إنسانا غليظا شرسا يضع خنجرا بين أسنانه، وينظر فى وحشية إلى ضحاياه وهو يستعد للانقضاض عليهم والفتك بهم.

الخوف والانبهار

ولقد كانت الثقة مفقودة تماما بين دنيا المسلمين أو دار الإسلام، ودنيا الأجانب. كل طرف يستريب في نوايا الطرف الآخر ويتربص به الدوائر. ولو راجعنا ما كتبه رجال من الغرب عن البلاد العربية في تلك الأزمان لقرأنا العجب، وفيها خليط من التهويل والكذب وخليط من الانبهار والخوف. ولن انسى تلك الفقرات من مذكرات الرحالة والمؤرخ الفرنسي جان دي جوفنيل الذى صاحب الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع ضد مصر واستولت على دمياط ثم انهزمت فى المنصورة حيث أسر لويس وافتدى نفسه ليعود إلى بلاده بمبالغ طائلة من المال. إن دي جوفنيل يصف المعارك التى دارت مع المسلمين وآلاتهم الحربية المفزعزة التى كانت تصب النيران على قوات لويس الذين جعلوا منه قديسا لطيبته وربما لسذاجته. وكان حسب وصف المؤرخ الفرنسى يركع الملك الفرنسى على ركبتيه فى أرض المعركة والنيران تحرق كل ما حوله ويبكى ويولول ويبتهل إلى الله أن ينقذه من شر هؤلاء الشياطين بالسنتهم النارية الحارقة. إن هذه الحملة كانت فى عام ١٢٥٠ م وما زالت آثارها راسبة فى الوعى الأوروبى، وفى ضمير الحضارة الغربية على نحو ما. وللأسف ليس لدينا مستغربين مثل المستشرقين لدى الغرب يدرسون لنا الغرب ونفسيته والعوامل الكامنة فى أعماقه الثقافية والتى تشكل تصوراته عن العالم الإسلامى، هذا بينما المستشرقون فى الغرب لا يتركون كلمة أو اثرا إلا ودرسوا وفحصوا ما يلاقونه ليعرفوا باستمرار كل صغيرة وكبيرة عن عالم الإسلام والمسلمين.

وليمة الذئاب

والعلاقة التي كانت قائمة على الريبة والخوف بين ثقافة الإسلام والثقافة الأوروبية، تحولت مع الثورة الصناعية في أوروبا إلى علاقة قائمة على السيطرة والسيادة من جانب أوروبا والخضوع أو الثورة من جانب العالم الإسلامي. وكان الغرب قد امتلك صناعة الصلب واستطاع أن يطمئن إلى قوته العسكرية في مواجهة عالم المسلمين، ومن هنا زال الخوف - ولو مؤقتاً - وتحولت نظرتهم إلى التعامل مع بلاد الإسلام على أنها مستعمرات يجب تمزيقها وتفكيكها بحيث لا تكون بينها رابطة، وبحيث لا تتبع قوة واحدة تسيطر عليها.

وإلى جانب هذا، انطلق آخرون في الغرب ينظرون إلى بلاد الإسلام كمتاحف، أو أماكن للتسلية والمتعة والبحث عن كل ما هو طريف، أو بلاد لممارسة أحلام رومانتيكية تزيف الواقع الإسلامي وتحوله إلى صور غريبة خيالية لا تمت إلى الإسلام وتقاليده بصلة.

وهكذا تحولت بلاد المسلمين إلى وليمة للذئاب، وأصبح المسلمون كالأيتام في مأدبة اللثام، ومضى الأقوياء في الغرب ينفذون مخططات التقسيم المادي الذي ينهش الكيانات العربية، والتقسيم المعنوي والأدبي الذي يضعف القيم الروحية والمعنوية، ولم يعد أصحاب السيف الباتريرون عالماً إسلامياً ولا أرضاً إسلامياً ولا تراثاً فكرياً إسلامياً بل كان ما أمامهم مواقع جغرافية للاقتسام ومساحات من الأراضي يتم توزيعها في مأدبة اللثام

ليستفيد منها من يريد استخراج المواد الخام وكنوز الأرض المطلوبة للمصانع الأوروبية.

توزيع الأرض العربية

وتحولت الكيانات الحضارية الإسلامية فى الشرق الأوسط إلى ممرات وطرق بين أوروبا والقارة الآسيوية، فهي مجرد معابر للهند أو استراليا أو الصين واليابان وسيطرت انجلترا من خلال الاراضى الإسلامية المطلة على البحر الأبيض ثم الأحمر، ثم الخليج على كل الطريق إلى الهند، أما فرنسا فقد اختارت أن تخترق العالم العربى الإسلامى بأن تنفذ من شمال إفريقيا إلى أواسطها عبر الصحراء. وهكذا استولت انجلترا على مصر بينما استولت فرنسا على معظم الساحل الشمالى لإفريقيا. واحتلت إيطاليا الأرض الليبية بين انجلترا فى الشرق وفرنسا فى الغرب، واحتلت اسبانيا جزءا من شمال المغرب. وعندما قامت الحرب العالمية الأولى لم تعد الأرض العربية أو الإسلامية أكثر من ساحات للقتال وممرات للقوات العسكرية البرية أو البحرية، وارضى للمناورات، وبلغ التنافس على تقسيم الاراضى العربية ذروته بين فرنسا وانجلترا باتفاق «سايكس بيكو» الذى عقد فى عام ١٩١٦. وبمقتضى هذا الاتفاق انضمت فلسطين فى الشرق من قناة السويس إلى السيطرة الانجليزية التى حرصت على احتلال جميع مداخل ومخارج كل من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ومن جبل طارق إلى عدن. وبعد أن كانت قد وقعت معاهدات الكويت والبحرين ومسقط وعمان فى القرن الثامن عشر لتشرف على مضيق هرمز إلى الخليج.

مشروع فلسطين الألمانى !

وكانت الحرب العالمية الأولى على المستعمرات والأسواق، بين إنجلترا وفرنسا وروسيا من ناحية وألمانيا والنمسا وتركيا من ناحية أخرى. أى أن القيادة الإسلامية الممثلة فى الخلافة الإسلامية العثمانية كانت متحالفة مع ألمانيا. ولكن هذا لم يمنع أن تسعى ألمانيا إلى اقتسام جزء من الغنيمة فطالبت منذ أيام حكم فريدريك الثانى بفلسطين لتجعل منها دولة «ألمانية مسيحية» ولتحول إليها بعض تيارات الهجرة من ألمانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فبدلاً من الهجرة إلى الغرب، تكون الهجرة إلى الشرق العربى. وكان هدف ألمانيا بطبيعة الحال أن تستخدم الهجرة الألمانية إلى فلسطين لتكون قاعدة غزو، تستيطر على موقع استراتيجى بالقرب من قناة السويس، وعند إلتقاء القارتين آسيا وإفريقيا. ومن هذه القاعدة تستطيع أن تفرض ألمانيا «القيصرية» شروطها على الدول الاستعمارية الأخرى وتجبرها على التنازل عن بعض الأسواق للصناعات والتبادل التجارى الألمانى.

وهكذا كان الجميع، حلفاء للمسلمين أو خصوما لهم، يريدون اقتسام جزء من أمة الإسلام. وكانوا يرون أهمية التركيز على الأرض العربية وعلى الدول العربية كمدخل للتأثير والسيطرة على العالم الإسلامى كمساحة استراتيجية من الأراضى والممرات بين أوروبا ومصانعها وآسيا بخاماتها وأسواقها المكتظة بالبشر فى الهند والصين.

غريزة البقاء

والآن، وبعد أن انتهت صراعات الأسواق بين القوى الأوروبية والأميركية إلى مأساة حربين عالميتين هلك فيها عشرات الملايين من البشر، استردت دول وشعوب العالم الإسلامى استقلالها، وفرضت عليها مشاعر غريزة الرغبة فى البقاء أن تتخلص من هذه التمزقات التى انهالت عليها من القوى الأجنبية الخارجية، وكانت أولى تلك المحاولات تلك التى دعا إليها رجال مثل جمال الدين الأفغانى فى القرن التاسع عشر، وكتب الشيخ محمد عبده فى مجلة العروة الوثقى يصف حالة التمزق التى عانى منها المسلمون فقال بأسلوب عصره فى الانشاء الأدبى.

أليس لكل علة دواء؟

«امتد لها - أى الأمة الإسلامية - السلطان للبعيد عنها والدانى إليها.. وعلت لها الكلمة وكملت القوة فاستعلت بآدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها.. وبعد هذا كله.. انتثر منظومها وتفرقت فيها الأهواء وانشقت العصا وتبدد ما كان مجتمعاً وانحل ما كان منعقداً وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد.. نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى وأسفا ما أصعب الداء وما أعز الدواء وما أقل العارفين بطرق العلاج، كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهى لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه.. استغفر الله، لو كان له شأن يعكف عليه لما

ملاحظات حول مؤتمر القمة الإسلامي

انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالاً به، ولكنه صرف لشمثون غيره وهو يظنها شمثون نفسه».

وينتهي الشيخ محمد عبده بأن العلاج الناجع «إنما يكون برجوعها - أي الأمة - إلى مقاعد دينها والأخذ بأحكام على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة».

أمور الدنيا والدين

ولكن هذه الدعوة لم تكن كافية، لأنها وقفت عند حدود التهذيب والأخلاق، والأمر كان يحتاج إلى مواجهة سياسية، وكانت هناك محاولات أخرى لجمع شمل المسلمين، من أهمها تلك التي عقدها المسلمون من مصر والسعودية والهند في مكة المكرمة عام ١٩٢٦، وتوالت بعد ذلك محاولات لجمع صفوف المسلمين وإقامة ندوات أو اتحاد أو رابطة، حتى تطور الأمر إلى إقامة منظمة المؤتمر الإسلامي على مبادئ تجمع بين أمور الدنيا والدين وأهداف سياسية تؤكد دور الإسلام ومسئولية المسلمين بالنسبة للسياسة الداخلية على مستوى الأمة أو السياسة الخارجية على مستوى العالم أجمع. ومع نشأة هذا المؤتمر الإسلامي، أصبح المطلوب هو معرفة كيف تدار الأزمات التي تواجهها الأمة الإسلامية في العالم الحديث، العالم الذي تعيش فيه قوى نووية، وعالم التكنولوجيا وثورة المعلومات، فاية محاولة للتخلص من حالات التمزق التي عانت منها الأمة الإسلامية خلال القرنين الماضيين لن تتم بنجاح حتى يتم إدراك طبيعة الواقع العالمي

المعاصر من خلال التمسك بتعاليم الإسلام لاكتشاف الدور الحقيقي للشعوب الإسلامية في العالم الحديث. وحتى يتصالح ما ورثناه من قيم خالدة للإسلام مع الجديد من مخترعات العصر واكتشافاته. مع الثقة في أن هذا الجديد لن يطرد القديم، ولكن على أن يثق القديم في الجديد، ويروى فيه استمراراً للكون الذي صبغه الخالق، فهذا هو قدر المسلمين، إذا شاءوا البقاء بمشيئة الله.

الإسلام.. والعروبة

حان الوقت لمراجعة جادة لبعض أفكارنا حول الإسلام والعروبة.

ولا يخفى على أحد أن الأمة الإسلامية تواجه أزمتين متلاحقتين، ولقد جرت مناقشات بينى وبين بعض الخبراء السياسيين في مقر حلف الأطلسي في بروكسل. انهالت على الأسئلة عن الإسلام وهل أصبح هناك أكثر من إسلام، لأن الإسلام في إيران يحارب الإسلام في العراق والإسلام في ليبيا يدخل في معارك مع الإسلام في تشاد والإسلام في لبنان يحارب بعضه بعضاً أكثر من محاربته لإسرائيل. هذا بينما كان هؤلاء المتحاربين أو المتخاصمين أعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، وقد وقعوا جميعاً على ميثاق المنظمة الذي ينص على أن يحل الأعضاء ما قد ينشأ بينهم من منازعات بحلول سلمية، كالمفاوضة أو الوساطة أو التحكيم، كما ينص ميثاق منظمة المؤتمر على امتناع الأعضاء عن استخدام القوة أو التهديد باستعمالها ضد وحدة وسلامة

ملاحظات حول مؤتمر القمة الإسلامي

الأراضي أو الاستقلال السياسي لاية دولة عضو في منظمة المؤتمر.

طبيعي إن مبادئ منظمة المؤتمر الإسلامي، إذا طبقناها على الواقع، وجدنا أن النصوص المكتوبة بينها وبين هذا الواقع فجوة كبيرة، ومن هنا يبدو التناقض بين شكل منظمة المؤتمر التي تجمع الدول الأعضاء المسلمين، وبين الواقع الذي يقول إن هناك حروباً أو خلافات باردة أو ساخنة بين أعضاء في المنظمة وأن المفاوضات أو الوساطة أو التحكيم لم يحقق ما هو مطلوب منها لحقن دماء المسلمين، وهذا هو ما يجعل الأوروبيين أو غيرهم يتساءلون ويتشككون، هل هناك إسلام واحد، وهل الإسلام هو دين التوحيد كما يقول المسلمون، أم أن الحديث عن الإسلام أصبح في تلك البلاد وسيلة لستر مصالح واحقاد واطماع شخصية ولو إلى حين.

خطة الدعوة

ولا شك أن المدخل الإسلامي الصحيح، هو في إدراك المسئولية العربية بالنسبة للإسلام، وهي مسئولية تشمل العرب جميعاً، ويكفي أن نتذكر أن خطة الدعوة الإسلامية كما وضعها الرسول ﷺ كانت تعتمد على استراتيجية واضحة، وهي توحيد العرب، وتحقيق التكافؤ والتفاهم بين قبائلهم، وكان هذا التوحيد هو النواة الصلبة التي هيات الإرادة القادرة على نشر الإسلام في العالم كله، ومن هنا يتحمل العرب مسئولية تاريخية لا يمكننا أن نتجاهلها. وكما أن الإسلام يزدهر بقوة العرب ووحدة صفوفهم،

فالعكس أيضا صحيح، فإذا ما بدت مظاهر التفكك بين العرب انعكست بالضرورة هذه المظاهر ونشط تأثيرها الضار في الأمة العربية على امتداد المعمورة.

وجدير بنا أن نواجه بحسم تلك الدعاوى الخاطئة التي حاولت أن تضع الدعوة للإسلام في مواجهة الدعوة للقومية العربية وكأنهما دعوتان متناقضتان، فالصياغة الصحيحة هي التي تقول أن الدعوة للقومية العربية والانتصار لها، والدعوة إلى توحيد قوى العرب هي بأى صورة مقدمة طبيعية وضرورية لاستقرار عربى يصون الأرض العربية التي تضم أماكن إسلامية مقدسة.

والإسلام له جذور عربية ممسدة في الأرض العربية، فإذا أراد المسلم أن يصلى فهو يتجه شطر البيت الحرام، وهو يؤدى فريضة الحج بأن يشد الرحال إلى مكة ويطوف حول الكعبة وهي أرض عربية مقدسة. ولغة القرآن الكريم هي اللغة العربية. والنص العربى القرآنى هو نص مقدس. إذن لا مجال للتفرقة أو اصطناع تناقض بين العروبة والإسلام، والأسانيد القرآنية التي تؤكد رابطة العروبة بالإسلام أكثر من أن تحصى «إنا أنزلناه قرآنا عربيا» و «لسانا عربيا» و «أنزلناه حكما عربيا». وليس هذا هو مجال دراسة حول العروبة والإسلام. ولكن يكفى أن نؤكد على أمرين :

• رفعة التواضع

أولهما : إن الارتباط واضح، وثانيهما: إن الارتباط ليس معناه أن العربى المسلم له ميزات خاصة على الأعجمى المسلم، فلا

ملاحظات حول مؤتمر القمة الإسلامي

فضل لاحد على الآخر إلا بالتقوى. وهذه هي عبقرية الإسلام، والقفزة الحضارية والعقائدية التي استطاع أن يحققها للإنسانية جمعاء. فالإسلام لم يختص شعباً بالذات، ولم يتحول إلى احتكار تستفيد منه طائفة مختارة، مثلما يفعل الصهاينة بالدين اليهودي. والإسلام لم ينكر الدنيا بما فيها، واعتبرها أرض الخطيئة ومملكة الشيطان، لقد جاء الإسلام لكل البشر وعاملهم بلا تفرقة عنصرية على أن الجميع سواء.. وهكذا أصبح للإسلام جغرافيا، أى له بيت وهو بيت عربى فى أرض عربية، كما أن للإسلام لغة وهى اللغة العربية، ولكن فى الوقت نفسه ليس للعربى المسلم أن يتميز عن بقية المسلمين ويكفيه فخرا شرف خدمة الإسلام فى بيته وبين أهله وبلغته العربية. وبمعنى آخر أن الشرف الذى يناله العرب، هو أن يكونوا فى خدمة الإسلام. وأن يكونوا على مستوى بالغ الرفعة والسمو من التواضع.

المساواة والتندية

ومعروف أن من مبادئ المؤتمر الإسلامى المساواة التامة بين الدول الأعضاء. وهناك نوعان من العضوية للمؤتمر: عضوية أصلية وتشمل جميع الدول التى وقعت على ميثاق المؤتمر فى شهر مارس ١٩٧٢ فى جدة بالسعودية. وهى ثلاثون دولة. ثم هناك العضوية بالانضمام وهى الدول التى تم قبولها بعد توقيع الميثاق. ومن بينها منظمة التحرير الفلسطينية وكثير من الدول الإفريقية والآسيوية مثل : الجابون وغينيا بيساو والكاميرون وبنجلاديش وسلطنة برونى وغيرها. والشرط الوحيد للانضمام هو أن تكون الدولة إسلامية ومستقلة وصاحبة سيادة. دون

تحديد لمفهوم الإسلام، وهل هو يتوقف على نسبة عدد السكان المسلمين في الدولة، أو أن هناك نصا في دستور البلد العضو يعلن أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام، أو أن يكون طلب الانضمام للعضوية بسبب موقف من قيادة الدولة، مثل قبول عضوية الجابون في منظمة المؤتمر بعد أن أعلن الرئيس عمر بونجو إسلامه. ولكن سواء كان الأمر هذا أو ذلك، فلا توجد أية تفرقة، من أي نوع بين الأعضاء الأصليين في المؤتمر والأعضاء الذين دخلوا المؤتمر عن طريق الانضمام لأحد الأسباب التي ذكرناها أو لغيرها. فالمجتمع الدولي الإسلامي يقوم على المساواة التامة والندية الكاملة. ولعل هذا هو ما يفسر أحد جوانب اليقظة الإسلامية على المستوى العالمي والتي أصبحت واضحة المعالم خلال هذا الربع الأخير من القرن العشرين. فالإسلام يدعو الجميع إلى العروة الوثقى دون تفرقة أو تمييز، وهو يقدم للشعوب الإفريقية التي عاشت لعدة قرون في ظل معتقدات قبلية وثنية، فرصة لا مثيل لها من الانفتاح على العالم والكون كله من خلال الإسلام. فبعد أن كان الفرد في القبيلة يعيش في عالم محاصر بحدود إله قبيلته ومعتقدات محلية وطقوس خاصة إذا بكل السدود والقيود التي كانت تحاصر هذا الفرد تنهار، يفتح له الإسلام آفاقا بلا حدود من الرؤية والتأمل وتصور الحياة الدنيا والآخرة.

ولقد جاء في مقدمة ميثاق المؤتمر الإسلامي أن الأعضاء المشتركين في المؤتمر مقتنعون بأن عقيدتهم المشتركة - وهي الإسلام - هي العامل القوي لتحقيق تقارب الشعوب الإسلامية

ملاحظات حول مؤتمر القمة الإسلامي

وتحقيق تضامنها. وهي تستطيع أن تحافظ على القيم الإسلامية سواء كانت روحية أو اجتماعية أو اقتصادية. وإن تراث الحضارة المشترك بين هذه الدول، وهو التراث الإسلامي قائم على مبادئ العدل والتسامح وعدم التمييز.

أهداف ومسئوليات

إذن، القول بالصلة بين العروبة والإسلام، لا تعنى بحال من الأحوال تمييزاً أو تفضيلاً للعروبة على بقية الشعوب الإسلامية غير العربية، ولكن من ناحية أخرى لا يعنى عدم التمييز إلغاء العروبة أو تجاهلها كعامل أساسي في خطة الدعوة للإسلام، تاريخياً وجغرافياً وحضارياً.

ولذلك جاء من بين أهداف المؤتمر نص واضح على تنسيق العمل بين الدول الأعضاء من أجل الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة وتحريرها ودعم كفاح الشعب الفلسطيني ومساعدته على استرجاع حقوقه وتحرير أراضيه، هذا بالإضافة إلى دعم كفاح جميع الشعوب الإسلامية للمحافظة على استقلالها وحقوقها الوطنية.

إن المحافظة على الأرض العربية وعلى الأماكن المقدسة في أرض العرب هو هدف من أهداف المؤتمر الإسلامي. وهذه مسئولية هي في تقديرى لها الأولوية، إذا أردنا أن نتبع الخطة الإسلامية الصحيحة لدعم الإسلام، والتي تعتمد على استراتيجية دعم القوى العربية وتوحيد صفوفها، لأنها مصدر طاقة حقيقية وأصلية في الدعوة للإسلام. وقوة العرب تبدأ ولا شك من تحرير

الأرض العربية ومن صنع سلام عادل واستقرار حقيقى فى
الأرض العربية.

حذار من الدس والوقية

ومن هنا نتطلع إلى المؤتمر، كاجتماع لتهدئة الخواطر وتصفية
ما بين النفوس أولا بين العرب لأن هذا هو المسار الحقيقى
للدعوة الإسلامية كما خطط لها الرسول الكريم. وأى قدر من
التفاهم أو التنسيق يحققه العرب فيما بينهم. ستكون له آثاره
المفيدة للعالم الإسلامى كله، سواء فى إيران أو لبنان أو فى أى
أرض يواجه فيها المسلمون بعضهم بعضا بينما يترصد بهم
الأعداء الحقيقيون ليفتكوا بالجميع بعد أن تنهار قواهم فى
الصراع المرير بينهم، إن قدرة العرب على إدراك هذه المسئوليات
فى تواضع، سوف تؤدى إلى حل مشاكل قد لا يخطر ببال أحد
اليوم أنه من الممكن حلها، سواء فى إيران، أو الفلبين، فى لبنان
أو تشاد أو السودان. هذه هى الرؤية الاستراتيجية التى تستطيع
أن تستوعب كل المناورات المحتملة من قبل الذين يريدون الهيمنة
على الأرض العربية، ويسعون اليوم - ربما فى الخفاء - للدس
والوقية وتسميم الآبار.

معاداة العرب أخطر من معاداة السامية

أول مرة سمعت فيها عن المذبحة الكبرى التى يهلك فيها البشر
ويسمونها «أرما جدون» ARMAGEDDON كان بمناسبة قصة
رواها السياسى الانجليزى العتيد «ونستون تشرشل» فى مذكراته
عن الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨.

ملاحظات حول مؤتمر القمة الإسلامي

وكان تشرشل يتحدث عن الذين توقعوا قبل نشوب الحرب العالمية التي هلك فيها ملايين البشر، إن الأوضاع والظروف السياسية ستبقى كما هي عليه، ولا جديد تحت الشمس. فالعلاقات الدولية لن تتغير، وأصدقاء اليوم هم أصدقاء الغد وكل غد.. وأعداء اليوم هم أعداء الغد وكل غد.

وقال تشرشل أن من يضع حساباته على أن كل شيء مستقر، ولن يطرأ عليه تغيير، إنما يعيش في وهم كبير، وروى تشرشل القصة الآتية:

عندما كان ضابطاً شاباً في الجيش الانجليزي، عام ١٨٩٥ أي في نهاية القرن التاسع عشر. دعا تشرشل أحد كبار رجال السياسة في ذلك الوقت وهو سير «وليم هاركورت» إلى بيته في مأدبة لتناول طعام العشاء.

وأثناء المأدبة، انطلق «سير ولیم» في الحديث مع ضيوفه، معبراً عن أفكاره السياسية، كرجل من رجال العصر الفكتوري، عصر الامبراطورية البريطانية التي لا تغرب عنها الشمس، والتي تسيطر بأساطيلها على كل بحار العالم، وقال السياسي العجوز: إن كل شيء قد استقر على ما هو عليه وهكذا سوف تمضي الحياة.

ولكن الضابط الشاب ونستون تشرشل، تعجب لهذه الرؤية السياسية وألقى بسؤال يبدو ساذجاً غاية في السذاجة. سأل «سير ولیم» :

- وماذا بعد ؟

فنظر إليه الرجل في دهشة وقال :

- يا عزيزى ونستون.. إننى بعد تجاربى الطويلة فى الحياة قد
اقتنعت بأنه لا شىء يحدث أبدا !!

ويعلق تشرشل ساخرا على هذه الاجابة فيقول : إنه منذ أن
سمع اجابة «سير وليم هاركورت» اثناء تلك المأدبة، والاحداث
تتوالى وتتصاعد لتتحدى قول «سير وليم» بأنه لا شىء يحدث،
وأن الاحوال مستقرة كما هى عليه. وذهب السياسى العجوز
بأيامه المستقرة، بينما مضت الاحداث فى تصاعدها حتى وصلت
إلى الحرب العالمية الكبرى، أكبر مذبحة بشرية فى التاريخ، أو
كما تصورها تشرشل فى ذلك الوقت «أرماجدون» القرن
العشرين.

العداء المكتوم

ولقد كان المأمول أن تكون مذبحة الحرب العالمية الأولى، هى
نهاية المذابح البشرية على هذا النطاق العالمى المخيف. ولكن
المذبحة تكررت بصورة أقسى وأشد هولا فى حرب عالمية ثانية
فى الأعوام ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ميلادية. ومنذ ذلك الوقت والحروب
الصغيرة تنشب هنا وهناك، من كوريا وفيتنام إلى إيران والعراق
فى الشرق إلى حروب أمريكا الوسطى والجنوبية فى الغرب.
وحروب إسرائيل فى الشرق الأوسط.

وقد حذر تشرشل من تكرار المذابح البشرية، قائلا : إن
الطريق إليها، هو نفس الطريق الذى سبق أن حذر منه الخطيب
الرومانى المفوه «شيشرون»، وهو طريق العداوات التى لا يفصح
عنها أصحابها، وإنما يكتمونها أو يدارونها. فالخطر الذى ينجم

ملاحظات حول مؤتمر القمة الإسلامي

عن مثل هذه العداوات أشد شراسة من خطر العداوات الصريحة الواضحة !

ولا شك أن من أخطر العداوات «المكتومة» تلك التي بين إسرائيل والأمة العربية والإسلامية، وهي عداوة غير تلك العداوة الصريحة بينهما، والتي تسفر عنها اعتداءات إسرائيل المستمرة والمتواصلة على الأرض العربية. فإذا كانت العداوة الصريحة، تتخذ أشكالا واطارات سياسية يتحدث عنها الساسة، وتدور حولها أفكار ومقدمات ومبادرات. فعلى العكس من ذلك نجد أن العداوة المكتومة التي لا تأخذ قسطها الواجب من المصارحة والمواجهة، هي التي تهدد حقا بأوخم العواقب، لأنها تقود إلى المذبحة البشرية الكبرى «أرماجدون»، بمعناها الأصلي الديني الذي يتمسك به غلاة المتعصبين والمتطرفين الدينيين وما أكثرهم للأسف في إسرائيل وهم بالذات يثيرون من وقت لآخر تعبير «أرماجدون» ويطلقونه كنبوءة عن مذبحة كبرى لكل أعداء إسرائيل!

رئيس الأشرار

ولا بد قبل أن نمضي في كلامنا، من أن نتحدث عن «أرماجدون» بمعناها الديني.

الكلمة ترجمة يونانية لكلمة عبرية هي «هارمجدو» أو «جبل مجدو» وهو من جبال إسرائيل كما جاء في التوراة. وجاء ذكره في أكثر من سفر من أسفار التوراة. بمناسبة الحديث عن معركة يخوضها «رب إسرائيل» ضد أعدائه، فيقضى عليهم جميعا بعد

مذبحة كبرى ونهائية على ذلك الجبل.

جاء - مثلاً - فى الاصحاح التاسع والثلاثون من سفر
«حزقيال».

قال السيد الرب، ها أنذا عليك يا جوج - رئيس الاشرار - أتى
بك على جبال إسرائيل، وأضرب قوسك، ويدك اليسرى وأسقط
سهامك من يدك اليمنى، فتسقط على جبال إسرائيل، أنت وكل
جيوشك والشعوب الذين معك.. أبذلك مأكلاً لسلطيور الكاسرة من
كل نوع، ولوحوش الحقل، على وجه الحقل تسقط لأنى تكلمت.
ولا أدع اسمى المقدس يتنجس بعد، فتعلم الأمم أنى أنا الرب
قدوس إسرائيل.

لورد النبي أوف مجدو

ويتردد هذا المعنى فى أسفار أخرى بالتوراة، كسفر القضاة
وسفر زكريا، ويفسر هذا المعنى المتعصبون والمتطرفون من
اليهود، بأن انتصار إسرائيل النهائى لن يكون بمفاوضات سلام
واستقرار «بين شعوب المنطقة» !! وكما يزعم الساسة، وكما
يرددون فى المبادرات السياسية المختلفة بل سيكون السلام
النهائى والحاسم بالقضاء على كل جيوش وشعوب المنطقة فى
مذبحة نهائية «هار مجدون» على جبال إسرائيل.

ولابد أن نواجه حقيقة مرة، وهى أن هذا المعنى قد انتقل من
التوراة إلى ضمير كثير من الأوروبيين المسيحيين، خلال صراع
أوروبا المبرير ضد العالم العربى والإسلامى منذ الحروب
الصليبية وحتى نهاية الامبراطورية العثمانية والخلافة الإسلامية

ملاحظات حول مؤتمر القمة الإسلامي

بعد الحرب العالمية الأولى فى بداية القرن العشرين.

وكان من الأحداث ذات الدلالة الكبيرة فى هذا المجال، أن «اللورد ادموند اللنبى» «١٨٦١ - ١٩٣٦»، والذي دخل بجيوش الحلفاء فلسطين عام ١٩١٨ فى مواجهة الامبراطورية العثمانية، اتخذ لنفسه لقب «لورد أوف مجدو» نسبة إلى جبل مجدو أو «هارمجدو» ليضفى على انتصاراته ودخوله بيت المقدس، معنى دينيا مأخوذا من التوراة. وهو أن انتصاره كان بعون الرب الإسرائيلى ضد الجيوش العثمانية، التى هى جيوش الشر التى يقودها «جوج» كما جاء فى التوراة.

الفصل السابع

المذبحة الكبرى طريق السلام الإسرائيلي

السلام عن طريق المذبحة

وبينما كان الساسة ورجال الفكر يناقشون قضايا الاستقلال في الشعوب العربية والإسلامية، كانت تتوارى خلف هذه المناقشات، مشاعر مكتومة، تضع الإسلام في مواجهة أوروبا، وتضع الانتقام من انتصارات صلاح الدين والدعوة لضرب المنطقة العربية بالوجود الإسرائيلي، والتنبؤ بمذبحة كبرى لأهل المنطقة، كمعاني مستترة في اللاشعور الأوروبي الغربي.

ولقد استغلت وسائل الإعلام الصهيوني معنى المذبحة الكبرى أو «ارماجدون» واستخدمته في تصوير نهاية الصراع بين عالم الغرب الرأسمالي وإمبراطورية الشر الشيوعي، باعتبار أن نهاية إمبراطورية الشيوعية ستكون على يد إسرائيل كما جاءت نبوءة التوراة على جبال إسرائيل !

وبالمثل ركزت الدعاية الصهيونية دعايتها ضد كل مبادرات السلام في الشرق الأوسط والتي ترفضها إسرائيل، لأن الدعوة الحقيقية للسلام ترتبط بانتصار عسكري حاسم ونهائي لإسرائيل. ولأن السلام سيتم بعون رب إسرائيل الذي سيحارب لها ويقضى على كل جيوش وشعوب المنطقة التي تعادى إسرائيل.

ومعنى هذا، أن الضمير الإسرائيلي المستتر، لا يربط بين السلام والعدالة، أو استرداد العرب أصحاب الحقوق لأراضيهم المحتلة، ولن يكون السلام بمفاوضات سلام تدعو إلى رفع الظلم وكسب الثقة بين الأعداء فكل هذه أوهام، لأن الاستقرار النهائي الذي يقضى على كل العداوات القائمة في المنطقة، هو الذي يتم باهلاك كل المعارضين لإسرائيل.

لماذا قتلهم إسرائيل ؟

ومن هنا تستमित إسرائيل في تصوير قوات منظمة التحرير الفلسطينية على أنها قوى شر. والفلسطينيون مخربون، وياسر عرفات هو «جوج» ومثله كل من يقود الفلسطينيين لتحرير أراضيهم.

ويرفض الإسرائيليون تحت وطأة التطرف الديني، والهوس الديني المتصاعد، أى محاولة لاقتناعهم بأن المجتمع الدولي بأسره في الأمم المتحدة، يرى في منظمة التحرير، مناضلين شرفاء من أجل هدف سياسى وإنسانى مشروع. ويرفض الإسرائيليون أن يعترفوا بالواقع، فالسياسى الفلسطينى مهما

المذبحة الكبرى.. طريق السلام الإسرائيلي

ارتفعت درجته الثقافية، ومهما كان مستواه الثقافي، ومهما بلغت مكانته الاجتماعية الدولية. هو في نظر الإسرائيليين مخرب ومجرم.. بينما القتلة الذين يسفكون دماء الأبرياء من الأطفال والصبايا والكهول. هم أبطال شرفاء، إذا كانوا إسرائيليين، يهلكون النسل الشرير الذي لابد أن يفنى في المذبحة الكبرى. والتي ستصل بالعالم - وحدها - إلى السلام الحقيقي !

ريجان لا يتكرو ولا يستنكر

ولقد طرحت قضية «أرماجدون» بالكامل على الرئيس الأمريكي الأسبق ريجان، أثناء حملته الانتخابية في معركة الرئاسة وما كان الإعلام الصهيوني يفوت هذه الفرصة، لإثارة رؤية «المذبحة الكبرى» كوسيلة أكيدة ووحيدة للوصول إلى السلام !

وكان لابد أن يقول الرئيس الأمريكي رونالد ريجان رأيه بوضوح في هذه القضية.. فماذا قال ؟
قال ريجان :

- إن بعض المناقشات الفلسفية التي يثيرها من لهم اهتمام بالنبوءات التي توارثناها على مر السنين، أعنى النبوءات التي وردت في الكتاب المقدس، تشير إلى «أرماجدون» وقيامها وما شابه ذلك. وهناك عدد من المتفكرين في علوم الدين خلال الحقبة الأخيرة أعلنوا عن اعتقادهم في صحة هذه النبوءات. ولكن من يدري، إذا كانت هذه القيامة سوف تحدث بعد ألف عام أو ستحدث غدا، ولذلك لا أضع خططي وفقا لحدوث «أرماجدون».

وهذه الاجابة التى تفضل بها الرئيس ريجان ، تحمل فى طياتها معانى مستترة فى غاية الخطورة، فإذا كان من حسن الحظ أنه لا يضع خططه على أساس أن السلام العالمى، أو فى الشرق الاوسط، سوف يتحقق بمذبحة كبرى على «جبال إسرائيل»! إلا أن اجابته تنطوى على تلك المعانى الخفية، التى تحمل فى طياتها :

أولا : الاعتراف بهذه النبوءة المتوارثة. وعدم انكارها أو تفسيرها بصورة غير تلك التى يتبناها المتطرفون الإسرائيليون.

ثانيا : الاعتراف بأنه فى الحقبة الأخيرة - أى منذ قيام إسرائيل - وهناك من يروج لصحة هذه النبوءة. فأى طلب للسلام، لن يتم إلا بمذبحة كبرى تنتصر فيها إسرائيل.

ثالثا : إن الرئيس ريجان، رجل متدين، يسعى إلى فرض التعليم الدينى فى المدارس ولو ارتبطت نظرية السياسة للأمور بنظرة دينية تتأثر بهذه النبوءات عن قيام مذبحة كبرى لتحقيق السلام، فهذا منعطف خطير، قد ينزلق إليه العالم، يؤدى إلى الكارثة الكبرى التى نعوذ بالله منها.

لقد كنت أتمنى، لو أن الرئيس ريجان انكر أو استنكر حل مشاكل العالم بنبوءة مذبحة كبرى.

ولعل من واجب الإعلام العربى المحتم، أن ينبه ساسة الغرب، بافتراض أن نواياهم حسنة، ويدعوهم للاعتراف بأنهم مهما كان الأمر، لن يقبلوا مثل هذا التصور البشع لمذبحة كاملة شاملة كنهاية دينية أو فلسفية لمشاكل العالم، ولتحقيق السلام.

المذبحة الكبرى.. طريق السلام الإسرائيلي

إن المعانى المكتومة، وغير الواضحة، لابد من مواجهتها، ولا بد من حركة نشيطة على المستوى العربى القومى وعلى المستوى الإسلامى. لمواجهة وإدانة هذه المعاداة ضد العروبة، وهذا الشر الإسرائيلى الذى يتخذ مسوح الدين.

ولابد من المساهمة من جانبنا بتقديم التفسير الصحيح للمعانى التى وردت بأسفار التوراة. ولقد كان علماء المسلمين أيام ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، يتصدون بقوة وبمنطق قاطع وحاسم لكل من يحرف فى الكتاب المقدس. ومن بينهم الفقيه ابن حزم الذى حارب بشدة التحريفات والتفسيرات الخاطئة للكتاب المقدس، والتى يستغلها اصحاب الاطماع والاحقاد لتحقيق مآرب سياسية دنيوية.

وإذا كان هناك أمل، فى أن يتحقق السلام فى الشرق الأوسط، من خلال مفاوضات سلام، قائمة على العدل، وعلى احترام المواثيق الدولية، وحقوق الإنسان واحترام إرادة الشعوب، فلا بد أولاً من وقفة ضد دعاوى «ارماجدون».

وإذا كان الصهاينة يقيمون الدنيا ولا يتعدونها، يدعوى أن هناك من يعاديهم ويعادى الجنس السامى، فإن هؤلاء الذين يصرخون ويتباكون ضد أعداء السامية عليهم أن يواجهوا الادانة والالتهام الأكثر بشاعة وهولاً، وهو معاداة الإنسانية، وتصور أن السلام بين البشر، لن يتم إلا بمذبحة كبرى. قد تتم بعد ألف عام أو بعد غد !!

الفصل الثامن

الجماعات الإسلامية

ونشاطها

فنى مصر

أزمة الشباب المراهق

الجماعات الدينية ظاهرة خطيرة أو خطر قبل أن تعرض أفكارها ومواقفها علناً على الناس، خاصة أن أحداً لا يعترض على التمسك بالأحكام والقيم الدينية، بل من الطبيعي أن يعتصم الطلبة بحبل الدين إذا واجهتهم مشاكل أو صدمات قد تزعزع الثقة في نفوسهم.

ولكن يبدو أن هذه النظرية المتفتحة ما زالت تجد من يستريب فيها، خاصة من تلك الأجهزة البيروقراطية، التي تخشى كل ما له صلة بالثقافة والفكر والمناقشة الحرة.. ولكن هذا لا يمنع من مواصلة التنبيه إلى ضرورة الاعتماد على الثقافة والعقل والحوار المفتوح لمواجهة أخطاء من جانب الشباب، هي غالباً أخطاء تطرف وتشنج، ولمواجهة أخطاء أكبر وأفدح من جانب الذين يمارسون الفساد بغير اكتراث لما قد تنتهي إليه أحوال البلاد مما نعوذ بالله الرحيم منه !

بعيدا عن السلطة

وأهم ما يسعى إليه الشباب المراهق هو الثقة، وليس صحيحاً ما يشاع من أن الشاب المراهق يسعى إلى المغامرة ويستهو به الطيش، والشاب الذي يأتي من قرية في الشاطئ الغربي من النيل في الصعيد، يأتي في الحقيقة من مساكن هي أشبه بكهوف في الجبل.. ولقد تعود الناس في تلك المناطق أن يدبروا أمور حياتهم ولعدة أجيال، بل لعدة قرون، بعيداً عن تدخل السلطة، بل أنه العيب كل العيب، إذا ما لجأ أحدهم إلى رجال الشرطة طلباً للحماية، أو لمعاقبة أحد اعتدى عليه، إذ لا بد أن يثار الرجل لنفسه حماية لشرفه وعرضه.. ولنا أن نتصور ما يحدث لآبناء هؤلاء الرجال، عندما يخرجون من كهوفهم طلباً للعلم في المدينة الجامعية في أسيوط أو المنيا.. إن حياة من نوع آخر تماماً تفاجئهم وكل شيء من حولهم يتغير، من مظهر النساء وملابسهن، إلى نوع السلطة التي تحكم المدينة، ويفقد الشاب توازنه، ويبذل جهداً خارقاً ليستعيد طمأنينة يفتقد، ونوعاً من الاستقرار كان قد تعود عليه فإذا به يتبخر من حياته.

ومثل هذا الشاب لا يجد شيئاً يستريح إليه، أو كلمة يطمئن إليها غير حديث يتناوله مع شاب عند صلاة الفجر في المسجد أو الزاوية التي يصلي فيها.. وعندما يدخل الشاب الجديد في التنظيم الديني يكتشف أنه دخل جماعة تحميه، وتعرضه عن فقدان سلطة الأب أو القبيلة أو العشيرة التي ينتمي إليها.. وعندما يشعر الطالب

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

بأنه محكوم بتعليمات وتوجيهات صابرة من قيادة، غالباً ما تكون لها هبة السرية، يجد نفسه منتمياً إلى قوة قادرة على حمايته.

الجماعات السرية

وهذا هو ما نبهت إليه في رواية الأفيال فقد جاء فيها وصف: «لما انفجر في البلاد كالوباء بعد كارثة ١٩٦٧، سقطت هبة الكبار.. والقوة الرهيبة المنتصرة تحولت إلى رماد في دقائق. وقال الأولاد لأنفسهم أفقنا من خدعة أذلتنا وأهانتنا، وانطلقوا وراء قوى سرية تصدر لهم القرارات وتطالبهم بالطاعة العمياء، وانصاعوا إليها ليتخلصوا من ذل الطاعة العلنية لمن قادوهم إلى الهزيمة.. اتجهوا إلى الجماعات السرية بحثاً عن سلطة جديدة أو طمعاً في الارتباط بسلطة لم تنهزم، أو وصولاً لسلطة تعوض المهانة العلنية، بأعمال سرية فيها بطش وانتقام واستعلاء».

والذين ينضمون إلى «الجماعات الدينية» تصبح لهم درجات أو مراتب، فأولاً مرتبة المستجيب لمن يدعوه، ثم مرتبة اللاصق الذي أقسم على الارتباط بهم، ثم مرتبة التأسيس والحديث معه عن المضايقات التي يتعرض لها في الحياة من أهله ومن مجتمعه وخروج الجميع على أحكام الدين، حتى ترتفع الروح المعنوية عند الشباب ويركبه الغرور، وعندئذ يدخلونه في امتحان السيطرة كاملة عليه، فبعد أن أطمأن وأدمن الثقة بأصحابه الملاصقين له يهددونه بالطرد من مجتمعهم، فيشعر بالخوف والضياع ويعلم عن استعدادهم للقيام بأي شيء من أجل البقاء في نفس الحظيرة.. وعندئذ يتحول إلى مجرد أداة سلمت عقلها وإرادتها لمن يقودها

إلى حيث يشاء. وقد يخلع الشباب الماضي من حياته كما يخلع
الضرس الذي نخره السوس، وقد خضع لعملية جبارة من عمليات
غسيل المخ، وأصبح واحدا ممن نراهم اليوم يوزعون منشورات
تطالب بالفناء الديمقراطية والحكم بأوامر «خليفة» لا ندرى عنه
شيئا يريد أن يحكم المسلمين باسم الإسلام !

الانقسام في مذاهب الدين

ولا أريد المبالغة، ولكنى لا أريد في الوقت نفسه التهوين من
الأمر.. وهناك من يقول : إن خطر مثل هذه الجماعات ليس كبيرا
ولا يستحق أن نصوره في حجم أكبر مما يستحقه.. فمثل هذا
التحريك باسم الدين عرفته مصر في كل العصور والعهود،
كظاهرة تعلق وتهبط، ولكنها لا تزيد على حجمها التقليدي.

ولقد كتب زكي مبارك منذ نصف قرن بالكمال والتسامح، في
كتابه عن «اللغة والدين والتقاليد في حياة الاستقلال» يروى عما
تعانيه مصر في ذلك الوقت باسم الدين، فلم يقدم لنا شيئا يختلف
عما نواجهه اليوم - قال زكي مبارك :

«إن في الحاضر - ١٩٣٦ - عبرة، فقد جدت في مصر نفسها
فتن دينية يعرفها من يخاط السواد في الأحياء الشعبية، ويكفى
أن يعرف القارئ أن في القاهرة مساجد يدخلها الناس، ويطرد
منها ناس، وأن في بعض القرى عائلات تتقاطع أبشع التقاطع
بفضل الانقسام في مذاهب الدين، ولست بهذا أوجب أن يقلل باب
الاجتهاد، وإنما أوصي بأن تحصر الأبحاث الدينية على البيئات
العلمية وأنصح بأن يحرس العامة حراسة شديدة من المشاركة،

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

في الخلافات المذهبية والذنيئية.. وَمَنْ الجلاء أَنْ تتكرر المناسبة التي وقعت في شبين الكرم منذ عام، والتي تقع أشباهها في كل يوم، وإن لم تدون أخبارها في محاضر البوليس.

والآن بعد نصف قرن، لا يذكر أحد ما الذي حدث في شبين الكرم، وما هي الأحداث التي تكررت والتي لا تدون في محاضر البوليس، ولكننا نعرف أن أحداثاً أخرى مشابهة تقع في مصر اليوم، وبعضها لا تذكره محاضر الشرطة، ولكن يبقى أن الظاهرة ليست جديدة، لا تدعو لغرابة أو دهشة أو كأن الذي يحدث أعجوبة لم نسمع عنها من قبل.

القوة مع مَنْ ؟

ويضيف آخرون، من أنصار اعتبار أن الأمر لا يستدعي التهويل والمبالغة: إن خطورة الجماعات الإسلامية ليست في توجيهها الديني، ولكن في أن ينقلب هذا التوجه إلى نشاط سياسي انقلابي، وهذا أمر يكاد يكون مستحيلاً في نظرهم لأن القوة في نهاية الأمر هي صاحبة الكلمة الحاسمة وهي في يد القوات المسلحة، وليس للجماعات الدينية سمطة علما.

الجماعات والفرق

صاحبة نشاط سياسي، مع بشيوخها ومريديها.

وجماعات الطرق الصوفية لها أصول قديمة في مصر، وأغلبها قائم على التكافل الاجتماعي بين أعضائها.

وفي مصر أكثر من ١٠٠ جمعية تضم المسلمين لأغراض

الفصل الثامن

دينية وثقافية واجتماعية مختلفة، وكلها جمعيات ليس لها نشاط سياسى مباشر، فهي تتجه إلى توعية وتشقيف الفرد كمواطن مسلم متدين صالح لأداء دوره فى المجتمع كنواة للتقوى والطهارة، أما الذين يدخلون فى النشاط السياسى فيتحركون من خلال تنظيمات خاصة وسرية لأن القانون لا يسمح لهم حتى الآن بإقامة أحزاب دينية.

والنشاط السياسى شديد الوضوح لهذه الجماعات ذات التوجه السياسى. ولقد قال لى أستاذ جامعى فاضل شديد الورع، يطلق لحيته ويحرص تمام الحرص على شعائر دينه: إنه غير مقبول من الجماعات الإسلامية، وليس السبب - بطبيعة الحال - أنه مسلم، وإنما السبب أنه لا يدخل فى تنظيم ولا يلتزم بأوامر قيادة توجهه ونقول له ما الذى يفعله وما الذى لا يفعله فى كل شىء وليس فى الدين فقط.

وهناك من رفعوا شعارات الجماعات الإسلامية كأعضاء استطاعوا دخول المؤسسات السياسية، كأعضاء فى مجلس الشعب - مثلاً - أو من خلال نشاط أعضائها فى تنظيمات أو حلقات خاصة سرية، تعمل خارج نطاق المؤسسات السياسية المعترف بها.

ولكن كيف تطور الأمر على هذا النحو ؟

إن نقطة البداية لهذا التطور، كانت فى خطة الرئيس الراحل أنور السادات لتدعيم مركزه السياسى على المستوى المصرى أو المحلى، أو على المستوى العربى، فى وجه مقارنة تحاصره

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

وتزعه بين شخصيته وشخصية عبدالناصر، وبين قدرات «الزعيم» الراحل و «الرئيس» الجديد.

فمن هنا كان لقاء السادات، وتحالفه مع الذين يرفعون شعارات الدين في عمل سياسي وإعلامي يواجه التيارات السياسية اليسارية والناصرية التي ما زالت تؤمن بسياسات عبدالناصر.

كان عبدالناصر يعلن عن صداقة الجمهورية العربية المتحدة للاتحاد السوفيتي باعتبار أنها صداقة استراتيجية أى واحدة من ثوابت السياسة المصرية العربية.

فكان من الضروري لينسف السادات هذه الاستراتيجية من قواعدها، أن يشجع الذين يعلنون أمام الجماهير، أن الاتحاد السوفيتي يدعو إلى الشيوعية والإلحاد، ويترك هؤلاء الدعاة يمارسون دعوتهم بينما يطلق هو تصريحات عن صداقته مع السوفييت، حتى يحين الوقت المناسب لتقويض هذه الدعاية الاستراتيجية. وما كان هناك رأى يستطيع أن يؤثر في الجماهير وأن يدفعها إلى نسيان السد العالي وشحنات القمح السوفيتي والصواريخ التي حمت مصر في حرب الاستنزاف، غير عمل سياسي مكثف يعتمد على الدين، وإثارة مخاوف حقيقية عند المصريين من الكفر والإلحاد.

وكان عبدالناصر يتزعم الدعوة إلى القومية العربية، ومهما فعل السادات في هذا المجال، فسيظل في نظر الجماهير العربية، تابعا لخطوات رئيسه عبدالناصر .. لذلك كان من المحتم أن

يشجع السادات الوحدة الإسلامية وكأنها أقوى وأهم من الوحدة العربية. وهذا موضوع خطير، سوف نتعرض له فى مناسبة أخرى، لأنه يستحق أن نناقشه منفردا. ويكفى أن نقول الآن أن السادات رأى أن يظهر بصورة «المؤمن» قبل صورة «القومى» وكان هذا خيارا سياسيا بالدرجة الأولى، ليكون له طابعه المميز عن سلفه عبدالناصر.

وكان من ثمار تحالف السادات مع الذين ارتضوا رفع شعارات الدين من منابر السلطة، النص فى دستور عام ١٩٧١ على أن الشريعة الإسلامية هى «المصدر الرئيسى» وليست «مصدرا رئيسيا» من مصادر التشريع. وقد استرضت الحكومة أعوانها فى هذا الاتجاه بقوانين تكسب بها رأى العام، مثل قوانين تحديد أماكن وأوقات تعاطى المشروبات الكحولية فى أماكن سياحية مخصصة لهذا الغرض، ومنع هذه المشروبات من جميع الأندية، وسط حملة إعلامية تزف للمواطنين البشرى بأن عهد الطهارة والتدين والصفاء الروحى قد أقبل، وعهد الإلحاد والتعذيب والقهر قد أدبر. هذا وتستمر حتى اليوم الدعوة إلى إلغاء بيع الخمر أو صناعتها ورفض المنطق الذى يقول إن مثل هذا المنع يضر بالدخل السياحى.

الدين الرسمى والدين الشعبى ١

وهكذا دخل الدين فى السياسة من أوسع أبوابها الرسمية، وأصبح تيارا دينيا فوقيا، يدعو إليه الحاكم، وينشر شعاراته، ويحشد له فى المناصب العليا، علماء الدين، ويجند له فى

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

الصحف أقالماً تبارك هذا المناخ الدينى وتبحث لها عن جماهير من طلبة الجامعات، لتضرب اتحادات الطلبة الذى كان يسيطر عليها الناصريون أو الشيوعيون، وهو هدف استطاع السادات أن يحققه بنجاح، عندما تسلم الطلبة بالمطاولى ومزقوا صحف الحائط، وهددوا كل من تسول له نفسه معارضة السادات من الطلبة، لأنه يصبح فى نظرهم كافرا ملحدا شيوعيا عدوا للدين.

وكان من الطبيعى أن يكون لهذا التحرك السياسى الرسمى، أو الفوقى الصادر من السلطة الساداتية، والرئاسة المؤمنة، تحرك آخر يقابله، ومضاد له، سياسيا، وعلى المستوى الشعبى الجماهيرى.

فما الذى تتوقعه غير هذا فى عالم السياسة، والسعى إلى تدعيم السلطة حتى لو كان سلاح السلطة هو رفع شعارات الدين.

الإخوان والسادات

وكان من الطبيعى أيضا أن تعاود جماعة الإخوان المسلمين نشاطها على سطح الحياة السياسية والاجتماعية، وقد سمح لها السادات بإعادة إصدار صحيفتها «الدعوة» برئاسة تحرير المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ عمر التلمسانى. وانتشرت المجلة وقفز توزيعها إلى أكثر من ١٠٠ ألف نسخة، وكانت لها مواقف سياسية واضحة بالنسبة للحكم، ومطالباتها بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، مكان القوانين الوضعية، وإن حرصت الجريدة - لأسباب سياسية مفهومة - على عدم مهاجمة السادات شخصيا، فهى لم تحصل بعد على وضع قانونى يسمح لها

بمواصلة الصدور، وتعتمد على موافقة السادات الشخصية، وذلك التحالف السياسى - وبالقطع ليس تحالفا دينيا - الذى يتيح للسادات أن يعتمد على الإخوان كقوة جماهيرية ضد الشيوعية، وضد الناصرية التى بينها وبين الإخوان ما صنع الحداد.

ولكن هذا التحالف السياسى، لم يمنع ظهور جماعات إسلامية أخرى تتحرك باسم الدين رافضة التحالف مع السادات.. وهذا أمر طبيعى، وكان لابد من توقعه.

صراع سياسى

ومن أهم هذه الجماعات، جماعة شباب محمد، وجماعة التكفير والهجرة، وكان أغلب نشاط هذه الجماعات يدور سرا، ولم يتكشف منه إلا ما ظهر من خلال قضايا، مثل قضية الفنية العسكرية، التى حاول فيها صالح سرية وزملاؤه الاستيلاء على السلاح من المدرسة العسكرية، ثم الهجوم على السادات ورجاله بمبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وسط القاهرة بجوار كوبرى قصر النيل. ولقد قدر صالح سرية أن احتمالات نجاح المحاولة لا تزيد على ٣٠٪، ولكن زملاءه صوتوا لصالح القيام بالمحاولة، متأثرين بصيحة أحدهم أن يقوموا بغضبة الله ضد الرئيس المؤمن.

فكان هذا مثالا على صراع نشب بين نشاط سياسى باسم الدين على المستوى الرسمى، يصارع نشاطا سياسيا باسم الدين على المستوى غير الرسمى، بكل ما يحمله من مدلولات غير دينية، كصراع طبقى على السلطة وصراع ضد السيطرة

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

البيروقراطية وصراع ضد التهاون مع الامبريالية والاستعمار..
وكل هذا باسم الدين.

أما جماعة شكري مصطفى - التكفير والهجرة - فقد كشفت
عنها قضية اختطاف الشيخ الذهبي وزير الأوقاف السابق كرهينة
مقابل الإفراج عن المحبوسين من أعضاء الجماعة، ثم قتلوا الشيخ
الذهبي عندما لم تستجب الحكومة لمطالبهم.

وكلا الجماعتين تعلنان أنهما إسلاميتان، ولكن زعامة صالح
سرية، ما كانت لتتفق مع زعامة شكري مصطفى. ولو قدر
لأحدهما النجاح لكان من المحتمل أن يسطرد بالآخر وأن يصرعه،
لأن الأمر في التحليل النهائي صراع للحصول على القوة أو
السلطة لتغيير أوضاع سياسية واقتصادية «فاسدة أو ظالمة»
بالاعتماد على أحكام الدين أي بالاعتماد على الإسلام، ولا أحد
بالطبع يمتحن الإسلام بين المسلمين، ولكن في الوقت نفسه
لا أحد يجرؤ على إلقاء السؤال البديهي.

رضيئنا بالإسلام ديننا

ولكن المشكلة هي المسلمين

الإسلام على العين والرأس، أما المسلمون، فالأمر يختلف في
النظر إليهم، وفي قبول أحكامهم أو الخضوع لحكمهم.

ويقول لنا الشهرستاني: إن خلافت كثيرة وقعت بين
المسلمين حول الإسلام، وكان مصدرها أسباب كثيرة على رأسها
النفاق الذي هو شر مستطير، ولقد ظهر خطر الخلاف وخطر
المنافقين باسم الإسلام حتى في أيام الرسول عليه الصلاة
والسلام.

أولاً: عبد الناصر

وهناك مظهر للإنسان، وهناك مخبر، والظاهر قد يختلف تماماً عن الباطن بل قد يناقضه.

ثم هناك بعد ذلك، أمر لا يفتبه إليه أحد، فهؤلاء الشباب الذين ينخرطون في الجماعات الدينية اليوم، ولدوا قبيل أو بعد عام الهزيمة ١٩٦٧، وهم أولاد عهد عبدالناصر، وقد دخلوا المدارس وتخرجوا في الجامعات بالمجان. وشاب مثل شكرى مصطفى خرج من مغارات الصعيد، وما كانت الفرصة تتاح له لأن يتعلم في الجامعة لولا ثورة قادها عبدالناصر.

هؤلاء الشباب قالت لهم الثورة بلسان عبدالناصر «ارفع رأسك يا أخی» فتطلعوا إلى حياة أفضل، وكانوا في مجتمعات فقيرة مغلقة، فأخرجهم الزعيم من جحورهم وحرك الطموح في نفوسهم، فلما انتهى الحلم إلى سراب بسبب انتصارات إسرائيل وكارثة فلسطين، صمم هذا الشباب على المحافظة على الطموح ورفض أن يتخلى عن الأمل، لقد عانى من الفقر، وعرف أسباب النذل والمهانة الطبقية، وواجهها - على الأقل - الآباء والأعمام والأجداد، وهو الذى اقتحم وراء عبدالناصر أبواب الثورة. فلن يوصد أحد الأبواب في وجهه، لا باسم هزيمة ٦٧، ولا باسم انفتاح للأغنياء والمستقلين، ولا باسم معاهدة كامب ديفيد.

وإذا كانت شعارات الثورة تساقطت، فلديه شعارات تراثه الدينى تسعفه، فتعلو رايات الدين بمفهوم ثورى سياسى، يفسر

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

لنا اختلافه بل تناقضه أحياناً مع الإخوان المسلمين الذين حاربوا عبدالناصر وحاربهم.

إنهم يشيرون قضايا الفساد، والظلم الاجتماعي ويطالبون بالتطهير والطهارة، ولا يستخدمون الشعارات أو المصطلحات الاشتراكية. يكفي أن يتحدثوا لادانة المفسدين في الأرض، أي المستغلين، كما كان طه حسين يتحدث عن «المعذبون في الأرض» أي ضحايا الاستغلال.

وهم يشيرون رغم كل تعاليمهم الدينية، قضية شرعية السلطة، بينما تحاول السلطة أن تتجاهل هذا الأمر، وتدفن رأسها كالنعام حتى لا تراه.

ولكن السكوت على هذا خطأ فادح ومروع، لأن من واجبنا أن نناقش الأمر بوضوح، حتى لا نتورط في مأس ومعاص باسم الدين والدين منها براء، بل هي من صميم الأزمة السياسية التي نتفاهم إذا تركنا الشباب بلا قيادة حكيمة عاقلة توجهه.

وقبل أن نلوم الشباب، أو نناصره بإجراءات أمن وضبط وربط، كان لابد أن نلوم الكبار أنفسهم، وأن يدركوا أن الخطأ الفادح جاء من العمل السياسي في الشارع المصري. ومن القيادات التي تلاعبت بالشباب وبشعارات الدين لأغراض سياسية، ثم تركت هؤلاء الأولاد بلا قيادة، خاصة الحزب الوطني الحاكم، الذي يتفرج الآن على صفقات واتفاقيات بين جماعات الشباب وأحزاب المعارضة، فيما يشبه البورصة السياسية - ولا أقول الدينية - ولا أحد يعلم ما الذي يباع وما الذي يشتري

فى هذه الصفقات، أو سمها: إذا شئت - التحالفات السياسية. ولقد كانت تصرفات الحزب الوطنى - الحاكم - مثالا لعدم الفهم السياسى، عندما ساهمت إعلاميا وثقافيا فى قطع كل صلة بينها وبين عهد عبدالناصر والمكاسب الشعبية التى حققها لجماهير الشعب، ثم تراجعت عن عهد السادات أو تأرجحت بين السكوت على أخطائه أو انتقاده أو تأييده، فانقطعت صلتها مرة أخرى بالشباب الذى توقع حركة جديدة فى العهد الجديد للقضاء على الفساد وتطهير الإدارة، فوجد أن الحزب الوطنى يتكأ أو يعرقل مسار التطهير، حتى فقد الشباب اهتمامه بالعمل السياسى الرسمى، ولم يجد فيه ما يرضى طموحه أو حتى احترامه لنفسه، ومن هنا ظهرت فى الأفق السياسى ساحبات قائمة تناقش شرعية النظام وتبحث عن أى كلام تجده فى كتب الدين تبرر لها مواقفها المتمردة أو المعارضة..!

الشرعية .. ومأساة الخلاف

الذين خلطوا الدين بأهواء السياسة

فى صراع على السلطة

تستمد السلطة شرعيتها من ولاء الناس لها عن اقتناع بأن السلطة القائمة بينهم تحكم بالعدل وبما يرضى الله عز وجل. وأنها لا تستمد شرعيتها بقوة السلاح، تضرب به أعناق الناس ليخضعوا صاغرين، بل هى تستخدم القوة والغلبة الضرورية لأية سلطة لاقامة العدل.

وهذا المبدأ، أى الاقتناع بأن السلطة صالحة للحكم، واطمئنان

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

الناس له هو أساس الشرعية، ينطبق علي جميع أنظمة الحكم بلا استثناء. بمعنى أنك لا تستطيع أن تقول عن حكم إنه شرعي رغم عدم اقتناع الناس به، ولا استثناء في هذا حتى لو زعم الحاكم أنه يطبق شريعة الله، وأنه يحكم باسمها.. فإذا كان لا يجوز مناقشة شرع الله وأحكامه، إلا أن الإنسان الذي يطبق الشريعة أو يفسرها ليس معصوما من الخطأ أو ما هو أكثر من الخطأ.

أمرشائع

والاختلاف حول تفسير النص القرآني، وتفسير الأحاديث الشريفة، ورؤية أحداث التاريخ الإسلامي من زوايا ووجهات نظر مختلفة أو متعارضة، أمر شائع في تاريخ الإسلام مثلما هو شائع في كل ما يمس شئون البشر، وسواء كان ذلك باسم الدين أو باسم مذهب سياسي علماني.

وستظل شرعية السلطة - أية سلطة - قائمة على الاقتناع معتمدة على العقل والمنطق وكيف يهتدى بهما الإنسان إلى ما يرى فيه مصلحته سواء بالنسبة للعالم أو الأمة.

سؤال هو لاكو

ولا شيء يقنع الناس بالولاء للسلطة، مثل إدراكهم أنها تتعامل معهم بميزان العدل.. وهذا هو ما شعر به المسلمون عندما انهارت الخلافة العباسية بعد اجتياح التتار بقيادة هولاكو ببغداد.

ولقد كتب ابن طباطبا بعد سقوط بغداد بخمسين عاما يروي قصة، قد لا تكون حقيقية ولكنها بكل تأكيد كانت شائعة بين المسلمين في تلك الأيام العصيبة التي شهدوا فيها سقوط

الفصل الثامن

الخلافاة الإسلامية تحت سنايك خيل غزاة كفار من التتار. والقصة لها مغزى عميق، وتصور لنا ما استقر فى ضمير المسلمين حول أسباب سقوط الخلافة.

يقول طباطبا فى كتابه «الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية» إن هولاءكو يعد أن دخل بغداد واقتحم قصر الخلافة استدعى علماء بغداد فلما اجتمعوا أمامه ألقى عليهم سؤالا :

- «هل تفضلون حاكما عادلا كافرا، أم حاكما ظالما مسلما» ؟

ورجم العلماء، ولزموا الصمت، فهددهم هولاءكو بالقتل، إذا لم يسمع اجاباتهم، وعندئذ تقدم واحد منهم وأفتى بأن الحاكم الكافر العادل أفضل من الحاكم المسلم الظالم.

والخلاصة، إن الذى أسقط الخلافة هو ممارسة الظلم وعدم ارتفاع الخليفة إلى مستوى مسؤولياته بأن يكون الحكم بين الناس بالعدل.

والقصة لا تدین الإسلام، ولكنها تدین المسلمين، لأن الإسلام والعدل لا يفترقان وكلمة مسلم تتنافر مع كلمة ظالم.. وهذا هو ما أثبتته الإسلام كعقيدة، إذا لم يجد الغزاة من التتار عقيدة أفضل منه، وتحولت سيوفهم عن محاربة الإسلام إلى الدفاع عنه. الأزمة مرة أخرى، ليست فى الإسلام، وليست فى الحفاظ على كتاب الله وآياته فالله عز وجل هو خير حاء للإسلام وللقرآن. إنما الأزمة فى البشر، فى النفوس التى يصيبها الضعف والوهن.. أو يصيبها التهور والاندفاع والشطط !

وهناك بين المسلمين من يقرأ آيات الكتاب فلا يرى فيها إلا

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

الجبر وأن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، كما يشاء وهذا كله صحيح. وهناك بين المسلمين من يقرأ أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وهذا أيضاً صحيح. ولكن عجز الكثيرون عن الجمع بين المعنيين، فاندفع البعض وراء معاني الجبر، فلا يريد أن يفعل شيئاً، سوى المحافظة على ما هو موجود وقائم. ولقد كان الأمويون يميلون إلى تشجيع هذا الاتجاه، حتى يتخلصوا من كل معارضة تثور حول شرعية حكمهم، بعد الصراع الذي نشب بين أبي سفيان وعلي بن أبي طالب وانتهى إلى الحرب ومعركة صفين ومأساة التحكيم ورفع القرآن على أسنة الرماح، ثم مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أين الحق ؟

أما مدرسة المدينة التي عرفت جعفر الصادق، وعرفت الإمام مالك، فكانت تميل إلى ممارسة الاجتهاد ولا ترضى بتفسيرات جامدة، وتقبل النظرة المتجددة لما تتصدى له من فتاوى وأحكام. وجاء في الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ أن المسلمين افترقوا خلال خمسة قرون على ثلاثة وسبعين فرقة.. وأن هذا أمر له خطره لأن الحق لا بد أن يكون مع فرقة واحدة، أما باقي الفرق فكلها قد تورطت في الخطأ.. ومن المحال أن تحكم على المتخاصمين المتضادين بأنهما محقان صادقان، فالحق يجب أن يكون مع جانب واحد.. فإذا صدق هذا كذب ذاك.

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً : « لا تزال طائفة من

أمتى ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة».
وقال أيضا : «لا تجتمع أمتى على ضلالة».

قائمة الخلافات

والذى نعلمه، ولا ينكره أحد، أن الخلافات قامت بين المسلمين،
وشملت كل شيء بلا أدنى مبالغة.

واليكم بعض نماذج من هذه الخلافات :

- خلاف حول معنى القدرة.. والجبر والاختيار

- خلاف حول معنى العدل..

- خلاف حول معنى الإيمان والتوبة.

- خلاف حول ما يصح اتهامه بالكفر، أو ضرورة أرجاء هذا
الحكم إلى يوم الحساب.

- خلاف حول ما هو صلاح وفلاح، وما هو حسن وما هو

قبيح.

الإمامة والرياسة

ويستمر الخلاف لا يترك قضية لا يصل إليها، إلى أن نصل
إلى خلاف رئيسي، حول شروط الإمامة أو الرياسة.

- اختلفوا حول الشروط، فهناك من قال إنه لابد من نص يحدد
الإمام أو الخليفة، وهناك من يرى أن الشرط المطلوب هو اجماع
المسلمين.

- اختلف الذين قالوا إن الرياسة تكون بالاتفاق واختلفوا
حول من له الحق فى عقد الاتفاق.. وقال البعض الأمة، وقال

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

آخرون ما هي الأمة؟ إن هي إلا جماعة لها اعتبارها.. وهناك من قال إن الإمامة حق لمن يصلح لها.. واختلفوا على من يصلح لها.

- واختلفوا على شروط أخرى، قال البعض لابد أن تكون الرياسة لقرشي لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قرشياً.. وهذا اعترض آخرون وقالوا لماذا يكون قرشياً، ولماذا لا يكون هاشمياً؟

وأما من قال يكون قرشياً، فكان يريد في حقيقة الأمر مساندة معاوية بن أبي سفيان وأولاده من بعده، ضد علي بن أبي طالب.

- واختلفوا حول من يرث الإمامة.. واختلفوا حول تحديد الأسماء، ولمن تكون الطاعة، حتى انقلب الأمر إلى فوضى، وأصبح تفسير أحكام الشرع ونصوص القرآن الكريم خاضعاً لأهواء ومصالح وأطماع، هي التي تزعم من له حق الطاعة وحده، ومن له حق تفسير النصوص وكان لا يحسم هذه الخلافات في أغلب الأحوال إلا القتل وسفك الدماء.

باسم الدين

ولن استمر في سرد الخلافات، فهي لن تنتهي وما ذكرت هنا إلا لانتهي إلى أن هذا الخلاف، يتيح الفرصة اليوم لمن يقرأ فيبحث عن شرط أو حجة أو تفسير لشروط الإمامة يتفق مع أطماعه، ثم يعلن في جماعة أنه أمير لها، أو أنه الخليفة المنتظر، أو أنه الإمام صاحب الكلمة العليا في شؤون المسلمين يتلقون العلم والتفسير منه وحده.. ثم يجد من يصدقه أو يسير وراءه، لا لأنه يقتنع بما يسمعه وإنما بحثاً عن تغيير ما هو قائم، أو رفضاً لوضع يريد لها أن تتغير بأية وسيلة.

وهذا يعنى، أننا لا نواجه - مرة أخرى - دعوة دينية، بل نحن نواجه مباشرة، تحركات سياسية تأخذ قناعا دينيا مشكوك فى سلامته الدينية، وواضح فى استغلاله السلطة باسم الدين للتخويف...

إن السلطة كما يقول ابن خلدون، وكما تقول جميع تجارب التاريخ، تعتمد على الغلبة أى القوة، وعلى الاقتناع بأنها عادلة ولمصلحة الجميع مما يضمن لها الولاء، وسلطة بلا قوة ولا اقتناع لن تقوم ولن تكتسب شرعية.

السلطة الدنيوية والإنسان

والدين لا يصنع السلطة الدنيوية، بل قد يتولى هذه السلطة من يقول للناس قول عمر بن الخطاب «أيها الناس من رأى منكم فى أعوجاجا فليقومه» فيقوم من يصيح قائلا له : «والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بسيوفنا». إن السلطة الدنيوية، تبدأ بالإنسان، بكل احتمالات ضعفه وأعوجاجه. والسلطة تقوم على الغلبة، وهى تقوم أيضا على قبول الناس لها وثقتهم فيها.. ثم هى بعد ذلك تستطيع أن ترد الناس إلى الشريعة.. أما أن يحدث العكس، فيقوم بين الناس من يزعم بأنه صاحب الحق فى الرئاسة باسم الدين، وكأنه صاحب تفويض إلهي، ثم يفرض على الناس الأحكام كما يزعم أنه يراها شرعية، ومن يعارضه يطيح السيف برقبته، ولا مجال للمناقشة ولا الاقتناع والاقتناع.. فهذا ما نعوذ بالله منه وما لا نقبله حفاظا على الدين وحماية له.

اختلط الأمر

إن الأمور السياسية، إذا اختلطت بالدين، ونوازع السلطة إذا امتزجت بالتقوى، اختلط الأمر، ولقد كان وأصل بن عطاء يسألونه في واقعة الجمل أو في أصحاب معركة صفين، وهو رجل العلم المتبحر في أمور الدين، ومؤسس المعتزلة. فكان يرفض أن يتورط في إجابة سياسية.

كانوا يسألونه : ما رأيك ؟

فيهز رأسه أسفا حزينا ويجيب : أحدهما مخطيء.

فيسألونه : ومن هو المخطيء ؟

فيسكت ويمتنع عن الإجابة.

حتى عندما سألوه في مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه..

سألوه :

- ما رأيك في الذين قتلوه.. والذين خذلوه؟

قال : أحد الفريقين فاسق لا محالة.

أما من هو هذا الفريق.. فقد رفض أن يحدده لأنه رفض أن يزوج بالدين في قضية سياسية وصراع دموى على السلطة.. وفرق هائل بين أن تستخدم جماعة الدين للوصول إلى السلطة وبين أن يقبل المجتمع نظاما سياسيا ويقتنع الناس به، لأنه النظام الذي يطبق أحكام الشرع ويحكم بين الناس بالعدل.. إن المدخل للسلطة، هو العدل.

أما السلطة الشرعية، كما نراها في أحسن صورها اليوم فهي

تلك التي تتجاوز كل الخلافات من خلال تجربة واعية، وليست تلك السلطة التي تستمد شرعيتها من القهر والبطش باسم الدين، ثم هي تندفع إلى إرهاب من لا يخضع لسياساتها وأهوائها، فتعمل على الضغط عليه بوسائل لا صلة لها بالدين.

ولذلك لابد أن نقول كلمة عن أولئك الذين يتعاملون اليوم بالجريمة، وبالتدمير وإشعال الحرائق، وبارتكاب كل ألوان الشر، ثم يبررون تصرفاتهم، بأنهم يدافعون عن الدين، ويريدون فرض شريعة الله.. إنها أزمة حقيقية.. الدين منها برىء، لأنها أزمة نفوس ضعيفة، وأزمة أخلاق.

شعارات دينية وسياسات لا أخلاقية

قبل الحديث عن السياسة والدين، علينا أن نتحدث أولاً عن الأخلاق! لأن هناك من يزعم أن أى حديث تدخل فيه السياسة، هو حديث لا صلة له بالأخلاق! وإذا قبلنا هذا الرأي، فلن نقبل بالتالى بحث العلاقة بين السياسة والدين. لأنه لا علاقة بأية صورة من الصور، بين الدين وأية سياسة لا أخلاقية.

ومع ذلك نجد بيننا من يتعامل فى السياسة على أن الواقع شىء والنظريات شىء آخر، فالواقع يتطلب مناورات وصفقات واتفاقات.. والسياسة فى الواقع أقرب إلى الناس ومعاملاتهم فى الشارع منها إلى كتب الفقهاء ومحاضرات أساتذة العلوم السياسية. وما زال «ميكافيللى» بتعاليمه اللاأخلاقية، ومبدئه المشهور أن الغاية تبرر الوسيلة، هو القدوة والنموذج الذى يحتذى كثير من رجال السياسة. وأنت تسمع بين وقت وآخر

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

سياسيا كبيرا - على اختلاف المذهب أو الحزب الذى ينتمى له - يهمس لك، أن السذج وحدهم هم الذين يصدقون الشعارات التى يذيعها الساسة اثناء خطبهم من فوق المنابر وأمام الميكروفونات. فقد يمدح هذا السياسى الاتحاد السوفيتى فى خطاب علنى، وهو يتفق سرا مع الولايات المتحدة اتفاقا ضد مصلحة السوفيت. وقد يثور هذا الزعيم أو ذاك أمام الجماهير ضد دولة عظمى وفى الوقت نفسه يرسل مبعوثين يتفاوضون سرا لعقد هدنة أو صلح.

والدين لا يسمح بالوسائل الشريرة والخبيثة كمبرر لتحقيق أهداف شريفة.. لأن الشر لا يصنع الخير، والحرب الظالمة العدوانية، لا تحقق انتصارا عظيما عادلا. والدين وسيلته وغاياته كلتاهما خير وعدل.

هناك علماء طيبون أفاضل، يقولون لنا: لا تزعجوا انفسكم بعقد مقارنات بين التصرفات السياسية والتصرفات الاخلاقية التى تقضى بها تعاليم الدين، لأن الذى يحكم السياسة قوانين أشبه بقوانين الطبيعة، وهى ليست قوانين طيبة أو خبيثة، فلا شر ولا خير ولا حكم أخلاقى، أمام قوانين صراع طبقات، أو تحولات حضارية تفرضها أحداث التاريخ. وإذا كانت السياسة هى فن استخدام الممكن واستغلال القوة المتاحة لك، فأنت لا تستطيع أن تبتدع قوة غير قوتك، أو ممكنا غير الممكن الذى بين يديك. ولن يهزم أحد أو يجوع ليرضى الأخلاق الكريمة. ولن يتنازل حاكم عن سلطاته باسم العدل، ولن تتخلى طبقة عن سيطرتها لأن التقوى دفعتها إلى ذلك. ولن يترك قوى سلاحه الفتاك خضوعا لتعاليم الدين ويلقى بسلاحه وهو مطمئن إلى سلامة العواقب. كل

الفصل الثامن

هذه أو هام شعراء، قد يستخدمها الساسة فى خطاباتهم لتخدير الشعوب، وتعطيل نزعات العنف بينها. ولكن تبقى الحقيقة، أن الأخلاق وتعاليم الدين شىء، وقوانين السياسة شىء آخر.

وأحياناً تسمع سياسياً يقول لك إن الدعوة إلى الأخلاق هى دعوة لا أخلاقية ودعوة كاذبة، لأنها لا تعتمد على سياسات سليمة، وتضلّل الناس عن القضايا الحقيقية التى يجب أن يواجهوا جهودهم إليها.

ومع انتشار هذه الأفكار، ساد بين كثيرين من المشتغلين بالسياسة نوع من قبول التصرفات اللاأخلاقية، التى قد تهبط إلى مستوى رخيص وريء، وتقبل ألوانا من النفاق والرياء والمجاملة، وألوانا أخرى من الجهل وسوء الفهم والبلادة فى التصرف.

وفى الحقيقة لو تصورنا أن حياة المجتمعات تقوم على مثل هذه التصرفات، لانتهدت هذه المجتمعات - علمياً وموضوعياً - إلى حالة من الانهيار الكامل الشامل لكل شىء، للرجال وما يملكونه من قدرات أو أموال أو سلطات.

الغرور والاستعلاء

وأخشى أن أقول إن مظاهر هذا الانهيار قد ظهرت بالفعل، وتندّر بوباء ينتشر سريعاً فى أماكن كثيرة ومتفرقة من العالم، ترى فيها حكومات ورياسات تتآمر وتتعامل مع الإرهابيين، وقد تجاهلت كل ما تدعو إليه الأخلاق. بينما الأخلاق مطلوبة، بل ضرورية، على مستوى الحكام، قبل أن تكون على مستوى

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

المحكومين، فالحاكم الذى يوافق على التآمر أو على تخريب الدول المجاورة له، إنما يسارع - فى المقام الأول - إلى تخريب نفسه وبلده التى يتصدى فيها للحكم كقائد وقادة.

وإذا كانت إسرائيل قد أرسلت التعصب المذموم والأعمى إلى من حولها من مجتمعات، فهي أيضا تعاني من هذا التعصب الخبيث داخل مجتمعاتها، ينهشها كالعفن، وأخبار الصراع بين الطوائف اليهودية وحرق معابدهم هي نتائج حتمية سوف تتضخم لما ارتكبه في المقدسات الإسلامية.

ونفس الشيء ينطبق على الحاكم الذى يزعم أنه يحكم مجتمعا إسلاميا باسم الإسلام، وكأنه حاصل على تفويض إلهي بالحكم، ويركبه الغرور والاستعلاء، فيخيل إليه أنه قادر على أن يحرك المجتمعات الإسلامية من حوله كما لو كانت قطعاً من الشطرنج، تأتمر بأمره وإلا أحرقها أو دمرها.

مثل هذه النوعية من الحكام، تخلط بين السياسية اللاأخلاقية، والتفويض الدينى أو الإلهي الذى تدعيه، وتزعم أنها حصلت عليه، على نحو لا ندري كيف نفسره أو نقبله، ولا بد أن ينتهى أمرها، بأن ترتد أفعالها وتصرفاتها اللاأخلاقية إلى صدرها، لأن مثل هذا الحاكم يصنع القدوة الشريرة، التى فيها هلاكه، قبل أن يكون فيها هلاك الآخرين. وهو يقدم لشعبه ولافراد مجتمعه نموذج الشر، فإذا أتبعوه فأول من سيلحق به الشر هو هذا النموذج، لأن هذه هي سنة الحياة وسنة البقاء. ومن هنا كان الخوف من انطلاق عدوى الشر من هؤلاء الحكام إلى الجماعات الإسلامية.

السمع والطاعة

والأخلاق مطلوبة، بل ضرورية، على مستوى الحكام وعلى مستوى المحكومين، ومازلت أذكر ما كتبه الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه «لكي لا تهرثوا البصر» الذي نشره منذ حوالي ثلاثين عاما، وكان يوجه دعوة للتمسك بالأخلاق إلى رجال الثورة، أي رجال السلطة الجديدة التي تحكم في مصر.. وكان يقول لهم: اعرفوا الحق ثم اتبعوه وسيجعلكم الحق أحرارا..!

وفي الفصل الأول من هذا الكتاب يتساءل الأستاذ خالد عن مفتاح شخصية الناس في بلادنا فقال إنه للأسف الشديد يتلخص في كلمتين: كلمة السمع وكلمة الطاعة..! فانت إذا سألت مصريا أو أي عربي، من أي بلاد أنت، فلا تجهد قريحتك في التذكر، وأجب من فورك:

- محسوبكم من بلاد السمع والطاعة..!

نفاق

وكان الأستاذ خالد يرى في هذه «السمع والطاعة» بابا لدخول شر مستطير يفسد حياتنا وأخلاقنا. فالسمع والطاعة تفسد الحاكم، وهي أيضا تفسد المحكومين.

وروى الأستاذ خالد قصة حاكم فقد عقله، فأعلن في الملأ إنه صار للناس إلها، فكان أن ذهب آلاف الناس يحجون إلى قصره يعلنون إنهم سمعوا وأطاعوا، ومثل هذا الحاكم يطالب الناس باذعان مطلق لاهوائه.

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

والسمع والطاعة تحول بين الناس والأخلاق القويمة، إنها تقوى غريزة القطيع بين الناس، بينما يضعف صوت العقل، وهي تعنى الانصياع المطلق لأمر وسياسات وقرارات لم يساهم الناس في إبرامها، ولا يدرون ما إذا كانت لمصلحتهم أم ضدها، وهي تعنى الخضوع لطغيان تقاليد يفرضها حكم مستبد يتستر بأزياء الدين حتى تلين القلوب وتستسلم العقول.

وهذا أيضا هو خطر يلوث عقول الشباب المحتشدين في الجماعات الإسلامية.

وأخيرا، يذكر الأستاذ خالد، كيف بلغ الفساد وسوء القصد أقصى درجاتهما، فيما كان يصدر عن المنافقين للطغيان من أحاديث ينسبونها كذبا إلى الإسلام، والإسلام منها برىء، يزينون فيها الطغيان والظلم !

فهل هناك نفاق أخبث من هذا وهل يرضى ذو شهامة وكرم وأصالة ونبل أن يظلم الناس، وأن يفرض ظلمه عليهم، وأن يقبل أن يكون هو والبلاء صنوان بالنسبة لشعبه.

أشرس من ميكيا فيللي

لقد انقضت سنوات طويلة على كلمات الأستاذ خالد، وخلال هذه العقود الثلاثة، جاهدت أجيال من الشباب رجالا ونساء بطول الأمة العربية وعرضها للخروج من هذه الصورة القاتمة، وذلك المشهد الفاجع، مشهد النفاق والسمع والطاعة. ولا شك أن العرب قد حققوا نجاحا بدرجات متفاوتة للخلاص من هذا البلاء.

ولكن الذى يهمنى - الآن - هو أن نؤكد على ذلك المعنى الذى نحرص عليه، وهو أن الدعوة إلى حرية الرأى، هى فى المقام الأول دعوة أخلاقية، وأنها تمس جوهر شخصية المواطن، قبل أن ترتبط بحقوقه وواجباته السياسية. فقد نعلن - نظريا وعلى الورق - إن للمواطن حقوقا وعليه واجبات، ثم لا تكون هناك حقوق، ولا ينفذ أحد الواجبات، لأن سلوك الأفراد، وسلوك الحكام يرى أن السياسة لا صلة لها بالأخلاق.

ويزداد الأمر خطورة، إذا ما تسترت السياسة بأقنعة وشعارات دينية، فنرى أنفسنا فى مواجهة صورة أشد شراسة للميكيا فيلية التى كانت - على الأقل - تفرق بين الديس والسياسة، وتفرغ الخطط السياسية من أية قيمة أخلاقية، فالسياسة ومناوراتها شئ والأخلاق والعقيدة الدينية شئ آخر، أما مزج السياسة اللاأخلاقية، والمناورات والدسائس بالتظاهر بالورع والتقوى والالتزام بأحكام الشرع، فهذا هو التزييف الذى لا يقبله أحد، لا حاكم عادل شريف، ولا رجل دين صالح.

تشبهات

والسياسة اللاأخلاقية تفسد أدياء الدين، أو الذين يتظاهرون بأنهم رجال دين. وإذا تصدى أحد إلى كشف تزييفهم وجها إلى الاتهامات والتشنيعات. والاستاذ خالد محمد خالد شاهد على مثل هذه التشنيعات والاشاعات الدنيئة التى طاردت رجلا مثل جمال الدين الأفغانى، وعالما مثل الشيخ محمد عبده. ولم تترك التشنيعات تهمة لم تلصقها بهذين الرجلين الجليلين. فعندما جمعا

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

الأموال لاصدار مجلة «العروة الوثقى» قالت السنة السوء: إنهما أنفقا الأموال على لذاتهما الرخيصة في ملاهى باريس..!

ويقول الأستاذ خالد: إنه سمع بأذنيه في قلب الجامع الأزهر من يزعم بأن الشيخ محمد عبده مات ولسانه مدلى على صدره. وانزعج الأستاذ خالد واعترض على ما سمعه، وسأل قائل هذا الكلام:

- لماذا تقول هذا..؟

فأجابه الرجل - الذى يدرس فى الأزهر!

- إن هذه علامة يفضخ الله بها السكارى عند الموت..!

وفى ذلك الوقت، صدق الأستاذ خالد هذا الكلام، وسمع وهو طالب علم فى الأزهر أن إمام الجامع الأزهر كان رجلا سكيراً والعياذ بالله، فانهارت القيم وقد أصبحت الاتهامات والتشنيعات، هى الوسيلة التى يحارب بها كل خصم الطرف الآخر الذى ينادى بأفكار غير تلك التى يرحب بها.

أرسطو والسياسة والأخلاق

إننا قد نتحدث ليل نهار لألف عام عن أهمية الحوار وتبادل الرأى، ومعرفة الرأى والرأى الآخر. وقد نحفظ عن ظهر قلب كل فوائد ومزايا حرية الرأى.

ولكنى أتساءل: ما قيمة كل هذا، أمام انهيار أخلاقى وما قيمة المظاهر التى تعلن التمسك بالتقاليد التى تتمسح بالدين، دون أن تتمسك بروحه وجوهره؟

إن هذا الذى شاع بين المثقفين عن الفصل بين السياسة والأخلاق، خطأ لا بد من تصحيحه، ومنذ كان هناك علم للسياسة كتب فيه أرسطو أبحاثه القيمة، عرفنا أن سياسة الدولة لا بد أن تقوم على الأخلاق، لأن الدولة مثل الفرد تماماً. إذا ساءت أخلاق الدولة فسد المجتمع وفسد الفرد، والعكس أيضاً صحيح، وإذا كان أرسطو قد كتب فى السياسة كتاباً، وفى الأخلاق كتاباً آخر، ولم يجمع بينهما فى كتاب واحد، فليس معنى ذلك أنه أراد أن يفصل بينهما، وينفى العلاقة بينهما، وإنما فعل ذلك لأنه رأى أن أخلاق الأمة وأخلاق الفرد، كلاهما يعتمد على الآخر ويرتبط به.

حجر الزاوية

ومن روايات العرب حول الأخلاق فى السياسة كما كان يراها أرسطو، إن هذا الفيلسوف الكبير أرسل إلى الأسكندر المقدونى - تلميذه - رسالة ينصحه فيها قائلاً له: كن عبداً للحق فإن عبدالحق حر.. واطهر لاهلك أنك منهم ولأصحابك أنهم بهم ولرعيتك أنك لهم.

هذه المعانى الأخلاقية هى حجر الزاوية بالنسبة لأى حديث عن السياسة فى مجتمع تسود فيه تعاليم الدين. وبالنسبة لمجتمعاتنا العربية لا بد أن يرتبط أى تصور سياسى لنظام حكم بالدين والأخلاق.

وهذا هو ما يجب أن ندافع عنه، وأن ننقله إلى شبابنا العربى، ليتحصن ضد أنواع من القدوة، تدفع به إلى التطرف والجموح

الجماعات الإسلامية ونشاطها في مصر

والعنف بلا روية، تحت تأثير شعارات، يبدو ظاهرها وكأنه من الدين، وهي في باطنها مجرد قوة باطشة تريد أن تخضع عقول الشباب وأن تلغى إرادتهم ليتحولوا إلى أدوات أو حطب تلقى به في أتون حروب سعيًا وراء أمجاد وأوهام لا يصنعها إلا غرور الشيطان...!

الفهرس

الصفحة

مقدمة الكتاب : عقولنا .. أين ؟	٥
الفصل الأول : رجل الدين لعبته السياسة ؟	١٧
الفصل الثاني : المنافقون باسم الإسلام	٣٩
الفصل الثالث : الإسلام عقيدة علمانية !	٧٥
الفصل الرابع : صراع قوميات لا أديان	٨٧
الفصل الخامس : ملاحظات حول اللقاء الإسلامى الكاثوليكي	١٠٣
الفصل السادس : ملاحظات حول مؤتمر القمة الإسلامى	١١٣
الفصل السابع : المذبحة الكبرى طريق السلام الإسرائيلى	١٣٥
الفصل الثامن : الجماعات الإسلامية ونشاطها فى مصر	١٤٣

رقم الإيداع ٩٨/٩٠٦٧

الترقيم الدولى

I. S. B. N

977 - 08 - 0756 - 7



مصم للطيران

عاماً من الخبرة والريادة

٤٠٠ رحلة أسبوعياً إلى

٨٥ مدينة عالمية ومحلية

اتصالات مباشرة

إلى جميع أنحاء العالم

مصم للطيران سماء بلا حدود

هذا الكتاب

فتتحى غانم من ألح الكتاب المصريين، وهو كاتب متعدد المواهب.. يكتب في السياسة بنفس البراعة التي يكتب بها القصة القصيرة أو الرواية.. كما أن شهرته ككاتب سياسي تعادل تماماً شهرته كروائي وأديب.. كما يتميز فتحى غانم بأنه كاتب يقلب العقل والتفكير في كل ما يكتبه أو يبدهه، وهو يرى أن أخطر قضايانا المستعصية هي قضية العلاقة بين العقل والتفكير الحر من ناحية، والعقيدة الدينية من ناحية أخرى.. على الرغم من أن الأديان كلها تدعو إلى أعمال العقل والفكر.. أن الإيمان بالله مطلوب أولاً بالعقل وبالاقتناع العقلي، وهذا هو الضمان الأكبر لازدهار الإيمان.. أن يكون الإيمان بالعقل وأن يكون مجتمع المؤمنين مجتمع عقلاء..

وهي هذا الكتاب يشرح لنا فتحى غانم أهمية الفكر وأزمة الإسلام والسياسة نتيجة غياب النشاط العقلي عندنا

كتاب

Bibliotheca Alexandrina



0392691

